البرلو مورافيا

امرأة من روما

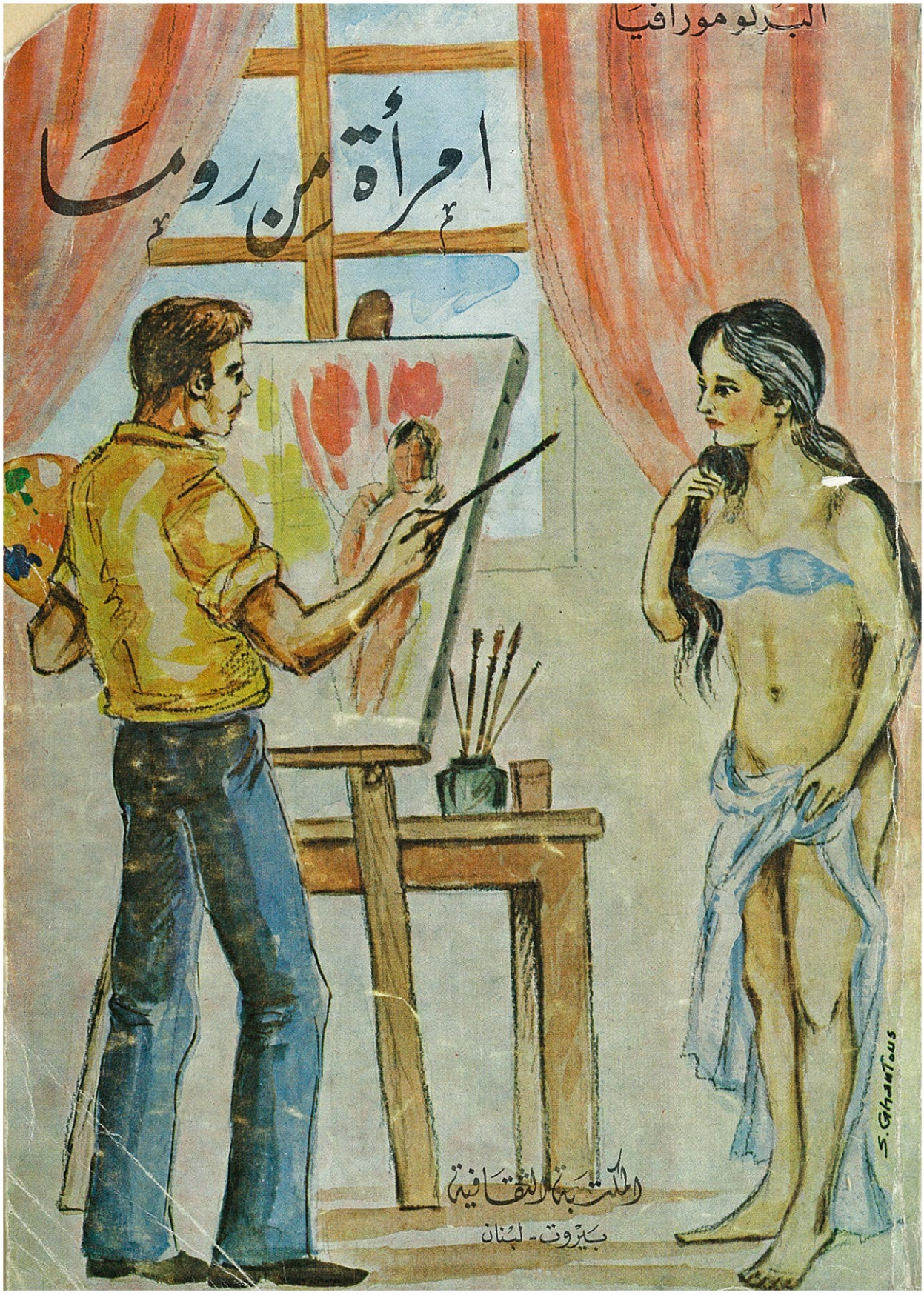

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

ألبرتو مورافيا

امرأة من روما

خليل حنّا نادر روس

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الفصل الأول

عندما أصبحت في السادسة عشرة من عمري ، كانت أنوثتي قد نضجت ، وجمالي ومفاتني قد لفتت أنظار فتيان الحي العاشقين فراحوا يلاحقونني بغزلهم الساذج ، ويطرون جمالي وفتنتي الطاغية بكلمات جريئة ، ومنذ ذلك الوقت تأكدت انني أتمتع بقسط وافر من الجمال والجاذبية الجنسية .

وكانت أمي تقول ان وجهي يتفجر نضارة وجاذبية ، ولكن تكوين جسدي وانسجام أعضائه يفوقانه روعة وسحراً .

وفي تلك الأيام كنت لا أعتني كثيراً بقوامي ، بل كنت أعتقد أن الفتاة الجميلة ، هي التي تتمتع بوجه جذاب ، وعندما كبرت أدركت أن أمي كانت على حق بقولها ان مقاييس الجمال تتوقف قبل كل شيء على القوام الرشيق وتناسق أعضاء الجسم عند المرأة .

وطالما كنت أقف أمام المرآة أتمتع بالنظر إلى مفاتني وأقارنها بأجساد أشهر الفاتنات من كواكب السينما وملكات الجمال ، فأجد نفسي لا أقل عنهن جمالاً وفتنة وأدركت أمي أن الوقت قد حان لأن أعاونها في كسب الرزق فذهبت بي إلى أحد الرسامين ، وبعد أن تأملني جيداً وافق على أن أكون نموذجاً له ...

ولقد اختارت أمي هذا لأنها قد امتهنت هذه المهنة وظلت تقف عارية أمام ذلك الرسام مدة خمسة أعوام لتكسب رزقها .

وعندما ذهبت لأول مرة إلى مرسم الفنان ، أصرت أمي على مصاحبتي ،

وهناك ساعدتني على خلع ثيابي بكاملها ، لأقف عارية ، ربي كما خلقتني ، أمام الرسام ، الذي راح يحدق بكل عضو من أعضاء جسدي بإمعان . !

والحقيقة انني شعرت بحمرة الخجل الشديد تغزو وجنتي ، وبان الحرج والارتباك في حركاتي لأنني لم أعتد الظهور أمام أحد من الرجال على هذه الصورة .

وقد حاول الرسام أن يشجعني ويزيل ارتباكي ، فراح يطري جمـــالي وقوامي الرشيق .

وقال انني سأكون نموذجاً مثالياً للوحاته . وكان الرسام في العقد الخامس من عمره ، وقد خط الشيب رأسه ، وظهرت التجعدات على قسمات وجهه ، وتهدل جسمه .

ولكنه كان يمتاز بشخصية مرحة محببة إلى القلوب عكس معظم الفنانين الذين تغلب على نفوسهم نزعة التشاؤم .

وبينما كان الرسام يباشر رسمي لأول مرة ، بعد أن أجلسني في وضع معين على أريكة ، سألته أمي بصوت نافذ :

– كم ستدفع لابنتي عن كل ساعة ؟

دون أن يرفع بصره عن اللوحة ذكر لهـــا مبلغاً ، اعتبرته أمي زهيداً ، فالتقطت ثيابي وحدفتني بها متظاهرة بالغضب وصاحت قائلة :

هيا يا داليا ارتدي ملابسك ولنذهب بسرعة فرفع الفنان رأسه مذهولاً وسألها قائلاً :

– ماذا حدث .. ألم يعجبك المبلغ ؟

فقاطعته بحدة وانفعال .

– لا شيء ..!

فاقترب منها وراح يهدىء من غضبها وهو يخاطبها :

– إذا كان المبلغ قليل فأريني كم تريدين ؟

وهنا راحت أمي تصرخ في وجهه بصوت مرتفع جداً كإحدى نساء الشارع، وتتهمه بأنه يريد استغلالي ببضع دريهمات قليلة ، وإني لست شبيهة بالفتيات المبتذلات اللواتي يؤجرن أنفسهن للفنانين بمبلغ زهيد .

وكنت أعلم أن والدتي كانت - عندما تريد شيئاً وتجد من يحول بينها وبينه ، تلجأ إلى هذه الطريقة متظاهرة بالغضب الشديد خاصة مع الأشخاص المهذبين ، واثقة أنها ستنال بهذه الوسيلة هدفها منهم .

ويبدو أن وسيلتها قد نجحت حتى مع ذلك الفنان المتوسط الحال ، فوافق على رفع أجري إلى مبلغ قبلته أمي على مضض .. ونقدها مبلغاً على الحساب اختطفته بسرعة من يده وأخفته في جيبها وانصرفت عائدة إلى المنزل وكأن ذهابها أزاح عن صدر الفنان عبئـــاً ثقيلاً إذ راح يتنفس الصعداء ثم التفت إلي قائلاً :

– هل تلجأ أمك إلى الصراخ دائماً ؟

أجبته وقد تضرج وجهي بحمرة الخجل :

– ان أمي تحبني حباً جماً .. فاعذرها ..

أعتقد أنها تحب المال أكثر من حبها لك .

فعارضته بشدة على اتهامه أمي بالأنانية وقلت له :

– اقسم لك انها تحبني أكثر من كل شيء في هذا العالم ، وهي تأسف لكوني خلقت ولهذا فهي تسعى جهدها لتساعدني على كسب عيشي وتوفير أسباب السعادة لي .

فتظاهر بأنه اقتنع بما قلته وانهمك بكليته في لوحته التي شرع يرسمها متخذاً مني نموذجاً لها .

والحقيقة انه كان رجلاً لطيف المعشر مرهف الحس ، وقد احسن معاملتي منذ اليوم الذي بدأت أقف أمامه عارية .

وكان يغدق علي الهدايا المتواضعة في المناسبات والأعياد فكان لها رغم بساطتها الوقع الحسن في نفسي .. ولا أكون مغالية إذا قلت أنني أشعر نحوه بشيء من الحب الممزوج بالتقدير وعرفان الجميل ، ومع ذلك فإنه لم يفكر يوماً ان يستغل ضعفي وميلي اليه لإشباع شهواته الجنسية والاستمتاع بجمالي ومفاتني.

وكان دائماً يتصرف معي كفنان موهوب وليس كرجل زاخر بالعواطف .

وما زلت اذكر تحذيرات أمي عندما عدت أول مرة من عملي ، فقد ألحت علي ان اطلعها على كل كلمة وجهها إلي ذلك الرسام ، وبعد ان اشبعت فضولها ، راحت تقول :

— اسمعي يا ابنتي ، ان هؤلاء الفنانين لا يملكون ثروى نقير ولا يستطيعون إسعاد فتاة جميلة مثلك .

ولأول مرة اسمع امي تتفوه بمثل هذا الحديث الجريء امامي ، والحق يقال انه اذهلني وجاءت عباراته غامضة لم افهم القصد منهـــا إلا فيما بعد ... ولهذا سألتها :

— ماذا تعنين بذلك يا اماه ؟

— ان هؤلاء الرجال يملكون حـــلو الكلام ، ولكنهم لا يملكون من المال إلا النزر القليل ، واعلمي ان غادة جميلة مثلك يجب ان تعاشر الشبان الأثرياء من ابناء الطبقة الراقية .

فازدادت دهشتي وحيرتي من هذه الأقوال فعدت اسألها :

– ومن هم هؤلاء الشبان الأثرياء ؟ انني لا اعرف احـــداً منهم ؟ فأمعنت النظر في بعض الوقت ثم رتبت على كتفي بحنان وقالت :

ستدركين ذلك في المستقبل. أما الآن فستظلين نموذجاً إلى ان يحين الوقت . وكل شيء له أوان .

ورغم انني ما كنت بحاجة إلى نصيحة امي وتحذيرها ، إلا اني عمدت إلى المحافظة على سمعتي وشرفي ، وجعلت لعلاقاتي مع الفنـــانين حدوداً معينة لم أتجاوزها .

وقد حزت على احترامهم وإعجابهم ، مع ان عدداً من الفنانين الشباب أبدوا إعجابهم بجمالي وراحوا يتوددون إلي لينالوا مني شيئاً ، ولكني قابلتهم بالرفض مما اضطرهم اخيراً للانسحاب معترفين بأنني فتاة شريفة .

وقد ملأت نفسي ملاحقات الشبـــان واستماتتهم في الحصول على رضاي ، غروراً وثقة بفتنتي الطاغية ، حتى انني صرت أجد لذة خاصة في مراقبة الفنانين وأصدقائهم يلتهموننني بنظراتهم الجائعة ، وأنا اقف امامهم عارية اتحداهم بجسدي البض ونهدي البارزين .

وكان هدفي الأوحد في هذه السن المبكرة ان اتزوج من فتى احلامي ، رغم ان غرائزي الجنسية كانت ما تزال كامنة لم تثر علي وتتمرد ، وكانت رؤية الرجل ، لا تثير في صدري اي احساس بالرغبة .

وكنت في أيام الأجازة الأسبوعية ألازم البيت وأساعد أمي في الخياطة ، وهي المهنة الوحيدة التي اعتمدت عليهـــا امي لكسب رزقنا منذ وفاة أبي ، الذي كان عاملاً في مصلحة السكك الحديدية ، والبيت الذي نسكنه ، والذي

فيه ولدت وترعرعت ، يقع في حي عمال السكك الحديدية ، وهو كغيره من البيوت المجاورة التي يسكنها العمال .

وجميع هذه البيوت تقع ضمن منطقة خاصة احيطت بالجدران العالية من جهاتها الأربع ، ولهـــا بوابة كبيرة ، وبجوار الحي اقيمت مدينة الملاهي (لونابارك) .. وكانت موسيقى اللونابارك تصل إلى مسامعي بوضوح ، وما كنت أحظى منها بأكثر من ذلك .

وفي معظم الأحيان كنت أقضي الساعات الطوال في حجرتي المظلمة أصغي إلى الموسيقى الساحرة وكأنها قادمة إلي من عالم سحري أجهله تماماً ، وطالما شعرت بحقارتي ورحت أذرف الدموع السخينة لكوني خلقت فقيرة محرومة من متع الحياة وسعادتها ومسراتها .

وذات مساء من امسيات الصيف ، وبينما كنت سائرة برفقة أمي ، لمحت في احدى هذه المنازل منظر عائلة تجلس في الحديقة ودلائل السرور والسعادة بادية على وجوه أفرادها .

وقد اثر في نفسي هذا المنظر تأثيراً كلياً حتى ان قلبي راح يخفق بشدة ، فآليت على نفسي ان اعمل جاهدة ليكون لي منزلاً أنيق هكذا اعيش فيه إلى جوار زوج مخلص وأطفال صغار .

ولكن أمي كانت تعد لي مستقبلي على طريقتها الخاصة ، وتأكدت فيما بعد ان مشاريع أمي قد هدمت آمالي التي كنت أرجو تحقيقها .

اذ انها كانت تعتقد أن فتاة مثلي يجب ان تستخدم جمالها وفتنتها كسلاح لشق طريقها نحو المجد والنجاح .. لا أن تقنع بالزواج من موظف بسيط ، وتنظر إلى جمالي على أنه ثروة ورأسمال يسهل عليها استثمارهما لتحسين وضعنا الاجتماعي وحالتنا المادية والتخلص من الفقر المدقع الذي كنا نتخبط فيه .

وقد استحوذت هذه الفكرة على رأسها منذ ان اكتمل نضجي وبرزت معالم جمالي .. ومع انني كنت أخالفهـــا في وسيلتها ، إلا انني لم أجرؤ على الاحتجاج ، ومصارحتها برغبتي في الزواج والعيش في كنف رجل محدود الدخل ..

ذلك ان إحدى الجارات أطلعتني على ما قاسته أمي بسببي من العذاب وشظف العيش وكيف انها اضطرت للزواج من أبي العامل المعدم لتستر عارها ، ومعنى ذلك أنني كنت ثمرة حب أثيم ، ولطالما عيرتني أمي وانتهرتني ملصقة بي كل أسباب عذابها وشقائها .

وكانت هذه العبارة تحز في نفسي ، لا سيما عندما أدركت ما تنطوي عليه من معنى حقيقي فيما بعد .

وكانت تريد أن تفهمني أنها لولاي لمـا تزوجت ذلك الرجل الفقير الذي هو أبي .. كما كانت تريدني ان لا أتعرض لنفس المصير الذي تعرضت له ، فأصبح زوجة لرجل من طبقتي لا يستطيع أن يوفر لي حياة سعيدة رغدة .

وتضاعف اعجاب امي بجمالي عندما بدأت اعمل كنموذج ، فصنعت لي ثوباً من قماش زاهي الألوان واشترت لي زوجاً من الجوارب الحريرية لأرتديها عند ذهابي إلى المرسم .

والحق يقال اني كنت بحاجة إلى ثياب داخلية لأنني كنت مضطرة للظهور أمام الفنان في ثيابي الداخلية قبل ان اتعرى امامه ، وكنت أخجل من عرض ثيابي الداخلية الرثة امام ناظريه .. ولكن امي لم تأبه لذلك وقالت ان المهم ان اظهر في ثياب لائقة أمام الناس .

وبعد شهور قليلة، وجدت أمي ان المبلغ الذي احصل عليه من الفنان قليلاً، فراحت تتذمر امامي معلنة ان معاشرة أولئك الفنانين لن تجديني نفعاً ، لذلك قر رأيها على تعليمي فن الرقص لأصبح راقصة .

ولكني عارضتها بحجة انني لا أميل إلى الرقص ، وأكدت لها فشلي في هذا المضمار ، خاصة وأن حركاتي بطيئة ، ورغم ذلك كله أخذتني إلى مدير احد الفرق الراقصة ، وبعد أن امعن النظر في أجزاء جسدي : طلب إلي ان اكشف عن ساقي ، ففعلت دون تردد او خجل ، ثم أدار اسطوانة وطلب إلي ان ارقص ، فانبرت امي تقول له :

– انها لم تتلق سوى دروس محدودة في الرقص ..

فأسكتها بإشارة من يده ، بينما رحت أنا أرقص ، وما لبث ان أوقف الاسطوانة واقترب من أمي يهمس في اذنها :

– ان ابنتك لا تصلح للرقص ، إنها بطيئة الحركة وبدينة ، إنها تجر رجليها جراً أثناء الرقص ..

وانفجرت على عادتها في وجهه تتهمه بالغباء والجهل في تقدير الجمال والجاذبية ، وراحت تصرخ فيه صائحة :

لماذا لا تصلح ابنتي ؟!

فأجابها بهدوء وهو ينفخ دخان غليونه قائلاً :

– لأن ابنتك يا سيدتي لم تخلق لتكون راقصة ناجحة ..

فعادت إلى الصياح قائلة :

– انظر .. ان ابنتي تملك أجمل وجه في العالم انهـــا « المادونا » انظر إلى صدرها الناهد البديع وإلى تناسق ساقيها وردفيها .. وبعد ذلك تقول ان ادريانا لا تصلح لتكون راقصة ، ما هذا الهراء .

ثم سحبتني من يدي لتغادر المكان .

وفي اليوم التـــالي أطلعت الفنان ، الذي كنت قد وثقت به على تفاصيل الحادثة فانفجر ضاحكاً لحماقة امي وجشعها ونصحني قائلاً :

ـ استمري في عملك الحالي كنموذج ، وسيأتي يوم تتزوجين فيه من رجل ميسور الحال ويسعدك وتلدين أبناء وبنات في مثل جمالك وفتنتك ...

فقلت له بحماس :

ـ هذا ما أتمناه يا سيدي من أعماق قلبي .

والحقيقة ان هذا الفنان كان خير ناصح لي ، ولو لم ينتقل إلى ميلانو فيما بعد ، لكنت استفدت كثيراً من تجاربه في الحيـــاة ، ولتجنبت كثيراً من المتاعب والشقاء الذي أصابني من جراء جهل أمي وغباوتي وعدم خبرتي ..

الفصل الثاني

ولازمني سوء الحظ ، وظللت أعمل كنموذج للفنانين ، انتقل من مرسم إلى آخر لكي أحصل على ليرات معدودة ، كما ان طباع امي ساءت فأصبحت شرسة تثور لأتفه الأسباب ، وتنهـــال علي لوماً وتقريعاً ، خاصة بعد ان صدمها الواقع المؤلم .

ومع انها لم تعبر عن غيظها وحقدها علي بالكلام ، إلا أن تصرفاتها ونظراتها نحوي جعلتني أتبين مبلغ اليأس الذي استحوذ عليها ، وأدركت لماذا تفضل بعض الفتيات التعيسات الفرار من بيوتهن والارتماء في احضـــان أول رجل يصادفنه في عرض الشارع .. تخلصاً من أمثال هذه التصرفات وهذا الاضطهاد الذي يتحملنه من أمهاتهن .

أنا لا انكر ان امي كانت تحبني ، ولكن حبها هذا أشبه بحب المرأة لدجاجة تبيض ، وما أن تمتنع تلك الدجاجة عن وضع بيضها حتى تشرع في وزنها وفحصها ومراقبتها عدة أيام ، فإن لم تعاود وضع البيض خلالها عمدت إلى ذبحها !

وكنت اقابل تصرفاتها القـــاسية نحوي ببذل الجهود المضنية لإرضائها ، فكنت أمنحها جميع النقود التي أحصل عليها من عملي كنموذج .

وعند عودتي إلى المنزل كنت أجلس أمام ماكينة الخياطة حتى ساعة متأخرة من الليل أتولى عنها خياطة القمصان .

كما كنت أنهض من فراشي في ساعة مبكرة فأرتبه وأنظف حجرتي الصغيرة وأساعد أمي في تنظيف الأواني .

ثم أسرع إلى عملي في المرسم ، وأقول الصراحة ان صدري لم يكن ينطوي في ذلك الحين على أي شيء من الناس ، لأني كنت متفائلة أقابل إساءة أمي بالابتسام ، وأجهد نفسي في إيجاد المعاذير لتصرفاتها مقنعة تفكيري بأنها تحبني وأنها تعمل على توفير اسباب السعادة لي ..

وكان الأمل يملأ شغاف قلبي بأنه سيأتي يوم أتزوج فيه وأنتقل إلى كنف زوجي حيث أستطيع ان احيا حياة أفضل من حياتي الحاضرة .

وكان من عادتي كل صباح ان استقل الاتوبيس من المحطة القريبة من بيتنا ، وأثناء انتظاري للأوتوبيس كنت ألحظ شاباً .

جميل الصورة قوي البنية ، معتدل القامة يقوم بتنظيف سيارة ، وكان من عادته ان يحملق بوجهي ..

وكان يشبه ممثلي السينما ، فقد كان يرتدي ثياباً أنيقة ، وكان مظهره يدل على انه حسن الثقافة .. مما جعلني اعتقد ان السيارة الفخمة ملكه وأنه من الأثرياء.

وكان منظره على هذه الصورة يثيرني ويعلق في نفسي شـــتى الآمال والأماني المكبوتة .

وذات صباح ، بينما كنت أنتظر الأتوبيس ، طرق سمعي صوت خافت يحاول أن يلفت نظري ، فالتفت لأجد ذلك الشاب جالساً إلى مقود سيارته .

ثم فتح باب السيارة يدعوني إلى الركوب إلى جانبه ، فقبلت دعوته بعد تردد قليل .. وما أن أصبحت إلى جانبه حتى سألني :

– إلى اين انت ذاهبة لأوصلك ؟

فذكرت له عنوان المرسم ، وقد لفت نظري هدوء صـــوت الشاب وقوة نبراته ..

وبعد برهة صمت قال :

حسناً ، فلنذهب أولاً في نزهة قصيرة لأن الوقت ما زال باكراً ، وبعد ذلك أحملك إلى المكان الذي تقصدين .

وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلت بنا السيارة إلى خارج المدينة ، فأوقف محرك السيارة والتفت إلي قائلاً :

– كم عمرك ؟

١٨ عام .

ان مظهرك يدل على انك اكبر سناً مما ذكرت .

ما اسمك ؟

– ادريانا ! وأنت ما اسمك ؟

– جينو !

– وماذا تعمل ؟

– انني أتعاطى عملاً ناجحاً !..

هل هذه السيارة ملكك ؟

– نعم انها ملكي !

– لا أصدقك ، فهي ليست ملكك على ما يبدو لي .

– ولماذا لا تصدقيني ؟

– اعتقد انك سائق سيارة ..

فبانت الدهشة واضحة على وجهه وقال :

– ولكن ما الذي حملك على الاعتقاد بأني سائق ؟

– يداك الملوثتان بالشحم ..

فألقى على يديه نظرة خاطفة وراح يتمتم بصوت هادىء :

ـ لله ما اشد ذكائك يا فتاتي .. لقد أصبت كبد الحقيقة فأنا سائق هذه السيارة الفخمة .

وهنا التفت اليه متظاهرة بالغضب وقلت له بحدة :

ارجو ان تعيدني إلى المدينة فقد تأخرت .

فحاول إرضائي قائلاً :

ـ أرجو أن لا تسيئي بي الظن ، فقد كنت امزح ..

ـ أنا لا أحب هذا النوع من المزاح ..

يا لك من فتاة عنيدة سيئة .

فتظاهرت بالاقتناع والرضى وقلت له :

ـ ولماذا التستر فأنا أيضاً عاملة بسيطة اكسب قوتي اليومي من عملي كنموذج .

ـ وما هو نوع عملك بالضبط ؟

ـ انني أتردد على مراسم الفنانين حيث أخلع ثيابي وأقف عارية ليرسموني في اوضاع مختلفة ..

فسألني مذهولاً :

ـ أو ليس لك ام ؟

طبعاً لي أم .. ولماذا هذا السؤال ؟

وهل توافق امك على وقوفك عارية امام اعين الرجال ؟ .

وأقول صراحة انني ما فكرت يوماً بذلك ، ولم يراود خاطري ان في العمل الذي اقوم به ما يعيب ويخجل ، وعلى الرغم من حراجة هذا السؤال

شعرت بالغبطة تغمر نفسي لبادرته الطيبة نحوي واهتمامه بأمري .. وهذا ما جعلني اعتقد بسمو اخلاقه وطيبته وشهامته وأن ارى فيه فتى احلامي الذي كنت اتخيله عندما اخلو إلى نفسي وأناجيها ، وبشيء من التردد اجبته :

ان امي هي التي هيأت لي هذا العمل .

ـ وهذا معناه انها لا تحبك .

ـ انت مخطىء .. انها تحبني حباً صادقاً .. وقد كانت هي نفسها نموذجاً عندما كانت شابة .. وأؤكد لك ان لا غبار على هذا العمل ، فهناك عدد كبير من الفتيات يحترفن هذا العمل ويحافظن على شرفهن وكرامتهن .

فهز رأسه مظهراً عدم اقتناعه بما قلته ووضع يده على كتفي قائلاً :

ـ انني سعيد جداً للصدفة التي جعلتني التقي بك وأتعرف عليك .

ـ وهذا ما شعرت به انا ايضاً .

وفي تلك اللحظة شعرت بعاطفة طاغية تقودني نحوه ، وتمنيت ان يأخذني بين احضانه ويلتهمني بقبلاته ، ولكنه لم يفعل بل قال لي بصوت قوي النبرات:

أشد ما يؤسفني انك تعرضين كرامتك وشرفك لتحصلي على مبلغ زهيد من المال ، ولهذا انصحك بعدم مزاولة هذه المهنة الحقيرة .

وعندما نطق بعبارته الأخيرة شعرت بعاطفة عرفان الجميل نحوه بينما عاد الى استئناف حديثه بقوله :

ـ ان فتاة بمثل جمالك وشبابك ، يجب عليها ان تظل في البيت لتزاول عملاً يليق بها ولا يعرضها لفقدان شرفها الى ان تأزف الساعة التي تلاقي الزوج الصالح فتبني أسرة وتنجب اطفالاً .

ولاقت نصائحه هذه هوى في نفسي لأنها تتفق مع املي وما كنت أتوق اليه .. فقلت له بحماس ظاهر :

– انك على حق فيما ذهبت اليه .

فهز رأسه مستخفاً بهذا القول ، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث ونحن جالسين في داخل السيارة جنباً إلى جنب ، وأخيراً نظر إلى ساعته وقال ان الوقت قد حان للعودة الى المدينة .

ثم أطلق لسيارته العنان ووجهته المرسم الذي أقصده .. وقبل ان اغادر السيارة قال لي انه على أتم الاستعداد لأن ينقلني بالسيارة إلى مكان عملي كل صباح فقبلت عرضه شاكرة .

وهكذا قضيت جميع ساعات عملي في المرسم وأنا أفكر في جينو وأحاديثه العذبة ، فوجدت نفسي غير نادمة على تلك الصدفة التي جمعتني به .

وقد تعمدت ان لا اطلع امي على علاقتي الجديدة بجينو ، خشية ان تضطرني الى قطع علاقتي معه لأنه شاب فقير مثلي يكسب عيشه بعرق جبينه .

وتتابعت نزهاتنا الصباحية في الضواحي والأماكن الجميلة ، وكانت هذه النزهات تنتهي عند باب المرسم ، ولا اعدو الحقيقة إذا قلت انه كان مهذباً وشريفاً في تصرفاته معي ، وشيئاً فشيئاً صرت أنظر اليه كرجل مثالي لا عيب فيه ، وأنه خالي من الأخطاء .. فهو شاب مهذب لطيف المعشر وشريف .

ولما توصلت إلى هذه النتيجة وجدت نفسي أقع في حبه .. وكنا يعلم ان عين الحب عمياء ، ترى القبيح جميلا وجذاباً .. وازداد حبي له وتعلقي به عندما قبلني لأول مرة .

وكان ذلك بعد مضي أسبوع على تعارفنا ثم ضمني إلى صدره وضغط على يدي

بشدة وهمس في أذني بصوت عذب بأنه قرر أن يتزوجني ، وكأنه قرأ ما يخالجني من أفكار ، فعمد إلى التعبير عنها بعبارات مقتضبة صريحة ، أزالت كل شك أو تردد في نفسي ، وجعلتني ألتصق به وأطبع على شفتيه قبلة طويلة دون حرج .

ومنذ ذلك اليوم رحت أتبعه كظله إلى المكان الذي يريد ، وكنا نستمتع بالجلوس متلاصقين نتبـــادل القبل المحمومة ، نتشاكى لواعج الهوى ونبني من آمالنا وأمانينا قصوراً .

ولمـا عدت في ذلك المساء إلى المنزل لم أجد حرجاً في اطلاع أمي على علاقتي بجينو قائلة :

– انني أصبحت مخطوبة يا أمي ..

وكأن دلواً من الماء المثلج قد صب على ظهرها ، فقد فغرت فاها في دهشة دون أن تتلفظ بكلمة ، وظلت هكذا بضع لحظات ثم قالت بصوت مختنق :

يا إلهي .. ماذا تقولين .. مخطوبة ولمن ؟!

فأجبتها والقلق قد استبد بي :

– إلى شاب لطيف قابلته مؤخراً !

– وما هي مهنته ؟

– انه سائق سيارة !

وحاولت استئناف حديثي ولكنها لم تتح لي ذلك ، إذ رأيتهـــا تقفز من مكانها خلف ماكينة الخياطة وتهجم علي وتمسك بي من شعري صائحة بصوتها الجهوري المعتاد :

– يا للتعيسة .. لقد قبلت الزواج من سائق حقير .. دون علمي .. انك تستحقين الموت ..

ثم راحت تنهال علي ضرباً بيديها مما جعلني أفر منها هاربة لأتحاشى ضرباتها، ولكنها لحقت بي وهي لا تكف عن الصياح والشتائم قائلة :

– لن أدعك تتزوجين السائق .. سأقتلك .. سأحطم رأسك هذه المرة .. انك فتاة عاقة شريرة فاسقة .

وكنت قد تمكنت من الاحتماء بالمـــائدة الموضوعة في وسط الحجرة حيث راحت أمي تدور حولها محاولة الإمساك بي .

ولمـا لم تتمكن تناولت المقص الكبير وقذفتني به بكل ما أوتيت من قوة وعزم ولكنني تفاديت الضربة الـــتي لو أصابتني لهشمت وجهي وقضت علي في الحال .

وفجأة راحت أمي ترتجف ، ثم ارتمت على أقرب مقعد صادفته وهي تجهش بالبكاء بعد أن دفنت رأســـها بين يديها وبعد لحظات سمعتها تقول بصوت خنقته العبرات :

– لقد أعددت لك عدة مشاريع لإسعادك .. لأني أريد أن تصبحي غنية تنعمين بالثياب الحريرية وتملكين شقة فاخرة وسيارة جميلة ، ولكنك خيبت آمالي بقبولك الزواج من سائق فقير .

– انه ليس فقيراً كما تظنين ..

ولكنه سائق سيارة ، يتناول مرتباً محدوداً يكاد لا يكفيه .. حقاً انك فتاة تعيسة وإن تكوني أوفر حظاً مني ..

سيتزوجك وستصبحين خادمة له ولأطفاله وهكذا ستظلين خادمة حـــتى نهاية عمرك .

– لقد قررنا الزواج عندما يحصل على مال يكفي لشراء سيارة يعمل عليها.

– انها تمنيات وآمال لن تلبث أن تتبخر لاستحالة تحقيقها ..

ثم مالت علي وأمسكت بذراعي وأردفت تقول بصوت مرتفع :

ولكن اياك أن تحضريه إلى هذا البيت لأني لا أريد رؤيته .. افعلي ما يحلوا لك خارج المنزل ولكن لا تحضريه إلى هنا .

وعندما توطدت علاقتي بجينو راح يلح علي بطلب تقديمه إلى أمي وكنت أزوغ من طلبه هذا بشتى الأعذار دون أن أجرؤ على مصارحته بأن أمي لا تريد رؤيته والتعرف به ، وأخيراً صارحته بالحقيقة قائلة :

– ان أمي لا تريد التعرف عليك لأنهـــا كانت تريدني أن أتزوج شاباً غنياً وليس سائق سيارة .

فأرسل زفرة خرجت من أعماق قلبه وظهر الحزن والأسى على قسمات وجهه ثم التفت إلي وقال بغصة :

– وما ذنبي ان كنت فقيراً ؟ ولو كنت غنيـــاً تملأ جيوبي الدولارات لاستقبلتني أمك بكل ترحاب حتى ولو لم أعدك بالزواج .

فلم أجرؤ على مناقشته لأنني شعرت بصواب ما يقول ، وبعد فترة صمت قلت له :

– لقد قررت أن آخذك إلى منزلنا في يوم من الأيام وأن أعرفك على أمي دون سابق إنذار ، وبذلك لا يسعها إلا أن ترحب بك وينتهي الأمر .

فوافق على هذا الرأي وحددنا موعداً لذلك .

وفي اليوم المحدد اصطحبت جينو معي الى البيت وقدمته إلى أمي قائلة :

أقدم لك جينو يا أمي ..!

وانتظرت ان تنفجر ثورتهـــا المعتادة ، ولكنها رمقته بنظرة خاطفة وقالت بخشونة :

ـ أهلا وسهلا ..

ثم تركتنا وانسحبت إلى غرفتها ..

وبعد لحظات معدودة عادت إلى حيث كنا قد جلسنا ، ووجهت حديثها إلي دون أن تلتفت الى جينو قائلة :

ـ لا يوجد عشاء يكفي الجميع ، كان عليك أن تعلميني لأعد عشاء الثلاثة ..

وهنا انبرى جينو يقول :

ـ عفواً .. انني لم أحضر الى هنا للعشاء .. ولكن أرجو أن تقبلي دعوتي الى العشاء مع ادريانا .

وكانت عبارته مهذبة ، وقد تلفظ بها بصوت رقيق كان له الوقع الحسن في نفس أمي فترددت لحظة ثم رمقتني بنظرة خاطفة وقالت :

ـ لا مانع عندي إذا وافقت ادريانا ..

فأومأت برأسي موافقة وأنا في غمرة من السرور ، ثم اقترحت ان نقصد إلى المطعم القريب من منزلنا فوافق جينو .

وعلى المائدة راح جينو يتودد الى أمي ويوليها عنايته واهتمامه .

وفي أثناء ذلك حضر بعض الشباب العابث وجلسوا الى المائدة المجاورة لنا ، ويبدو أن أحدهم كان ثملا وعربيداً فراح يحملق في بقحة ظاهرة :

ثم أرسل صفيراً خاصاً من فمه دليل اعجابه بجمالي وفتنتي .. وما ان سمعه جينو حتى هب من مقعده واتجه نحو المائدة التي يجلس عليهـــا ذلك الشاب وهو يخاطبه :

– ماذا تقصد بإشاراتك وصفيرك ؟

فأجاب الشاب :

– لا شيء .. أراك غاضباً فلا داعي لذلك .. خذ هذه الكأس واشربها .. انه من أجود النبيذ الإيطالي ..

فأزاح جينو الكأس بيده بحركة عصبية وقال مهدداً :

– لا تحاول أن تكرر صفيرك وإلا حطمت رأسك .. أفاهم أنت ؟!

ويبدو أن جينو لم يرق لزملاء الشاب ، ولكن أحدهم لم يجرؤ على الانتصار لرفيقه المخمور ، وعاد جينو وقد احتقن وجهه من شدة الغضب ، وما أن جلس مكانه حتى تمتم قليلاً :

– انهم أوغاد بلا تهذيب .

فبادرته أمي مهدئة من أعصابه بقولها :

لا تعبأ بهم ، انهم سكارى لا يدركون ما يقولون :

أما أنا فقد كنت أرمق جينو بإعجاب وشغف لشهامته واندفاعه في المحافظة علي وحمايتي .

وفي أثناء الحديث سنحت الفرصة لأمي كي تبدي رأيها في علاقتي به ، وذلك عندما راح جينو يقول :

– قد تتهميني بالرجعية والجمود إذا قلت لك انني استهجنت وقوف ادريانا عارية من جميع ثيابها أمام أعين الرسامين طيلة ساعات النهار .

فسألته أمي بجفاء :

– وما الداعي لهذا الاستهجان ؟

فأجابها بصوت هادىء :

ـ لأن ظهورها عارية يسيء الى كرامتها كفتاة شريفة .

وهنا انفجر غضب أمي فراحت تصرخ بصوت مرتفع، وقد زاد في عصبيتها وحنقها نشوة النبيذ الذي تجرعته خلال الطعام ، حـــتى جعلت رواد المطعم يتطلعون نحونا بفضول متسائلين عن سبب هذا الصياح .. ثم امسكت بذراع جينو وهزته مخاطبة :

ـ وهل من الشرف والكرامة أن أموت أنا وابنتي جوعاً ؟ اسمع .. ان لإدريانا ملء الحق في أن تظهر عارية أمام أي كان لتحصل على المال .

وأقول لك صراحة انني غـــير راضية عن ارتباطها بشاب معدم مثلك لا يستطيع أن يوفر لها حياة سعيدة رغدة .. انني أفضل ألف مرة أن اراها تتسكع في الشوارع المظلمة من أن تظل خادمة لك طيلة حياتها .

واستمرت في ثورتها وهياجها على هذه الصورة ، أما جينو فقد احتفظ بهدوئه ورزانته معتصماً بالصمت التام .. بينما كنت أنا أعاني في قرارة نفسي مرارة الألم والخجل من الأقوال التي تلفظت بها أمي ..

وفجأة توقفت عن الكلام لتتناول قدح النبيذ وتفرغ محتوياته في جوفها دفعة واحدة .. فأسرع جينو الى القدح يعيد ملأه من الزجاجـــة ويضعه في متناول يدها بهدوء متجاهلاً اهاناتها التي وجهتها اليه ، ثم رفع رأسه موجهاً كلامه اليها :

ان ادريانا ، بما تتمتع به من فتنة وجمال ، تستحق أن تعيش حياة السيدة التي أعمل عندها ..

فسألته بحماس :

وكيف تعيش سيدتك ؟

– تنهض عند الساعة الحـــادية عشرة صباحاً حيث تتناول طعام الإفطار الذي يقدم لها على طبق من الفضة دون أن تبرح سريرها ثم تدخل الحمام لتقضي نصف ساعة في مياه المغطس المعطرة ، وعند الظهر أحملها بالسيارة الفخمة إلى الأسواق لتشتري بعض الثياب والعطور ، ثم تعود إلى قصرها لتتناول طعام الغداء ، وبعد أن تأخذ قسطاً من الراحة ، تقضي بضع ساعات في ارتداء ثيابها وتصفيف شعرها لتقصد بعد ذلك دار احدى صديقاتها حيث تمضي الليل في لعب الورق واحتساء كؤوس الشمبانيا والرقص على أنغام الموسيقى .

واستبدل الفضول بأمي فسألته .

وهل مخدومتك جميلة ؟

أجابها باحتقار :

– جميلة ؟ انها في منتهى القبح ، فهي نحيلة أشبه بساحرة شمطاء .

وراح يحدثها عن ثرائها الواسع وملايينها والسهرات الحمراء التي تقيمها في قصرها لعدد من شخصيات الطبقة الراقية وأصحاب الأسماء البارزة في المجتمع .

وقد لاحظت انه تعمد اطالة الحديث ليزيل صورة غضب أمي ويعيدها الى صوابها ، وفعلاً ارتاحت اساريرها وعادت الى طبيعتها ، وهكذا انتهت سهرتنا الأولى مع جينو على سلام .

وعندما التقيت به في اليوم التالي رجوته ان لا يعير أقوال أمي ادنى اهتمام ، فأمسك بيدي وضغط عليها برقة وقال انه يقدر وجهة نظرها في الحياة .

وفي خلوة مع نفسي رحت استعرض علاقتي مع جينو منذ اليوم الذي قابلته فيه ، فتبين لي انني مدينة له بأمور كثيرة ، في حين اني قابلت حسناته بكثير من التحفظ ، فلم أبده يوماً في غزله ومداعباته إلا في حدود معينة لم تتجاوز تبادل القبلات المحمومة .

وسبب ذلـــك اني كنت أخشى ان انا افقد السيطرة على جسدي الثائر فأستسلم له بكليتي .

أما عاطفة جينو الحقيقية نحوي فإنه من العسير علي تحديدها بالضبط ، ومن المؤكد أنه كان يتحرق شوقاً ولهفة لامتلاكي والتمتع بمفاتني .

وفي إحدى نزهاتنا الخلوية في الأرياف أوقف جينو السيارة في مكان بعيد عن أعين الفضوليين ، وضمني الى صدره بقوة ثم ألصق فمه بشفتي وراح يمتصها بلذة ونهم زائدين وكأنه يمتص رحيقاً عذباً ، وبعد حين شعرت بأنامله تعبث بأزرار قميصي بعصبية ظاهرة، وبفمه ينتقل إلى صدري يغمره بقبلاته المحمومة. وفجأة احسست بالهواء البارد يلفح صدري وقد انحسر قميصي عن جزء منه فتدرج وجهي بحمرة الخجل وشعرت بالارتباك .. فأسرع جينو يغطي الجزء المكشوف من صدري بلباقة .

وعندما ضمتني جدران غرفتي في المساء ورحت أستعرض هذه الحادثة ، ثار جسدي علي وشعرت برعشة خفيفة تجتاح أوصالي كلها .

وفي اليوم التـــالي عاد جينو إلى طريقته الجديدة في المداعبات ، فشعرت مجدداً بنشوة عارمة تغمر جسدي الثائر كما اني لم أخجل هذه المرة عندما حسر قميصي عن صدري وراح يعبث بأنامله وشفتيه في المواضع الحساسة منه ، بل على العكس ، لقد زادتني هذه المداعبات متعة ونشوة .

وفي ذلك اليوم اكتشفت ان عالم الحب زاخر بالملذات والمتع الجسدية يمكن لحبيبين ان ينهلا منها بكثرة ونهم .

الفصل الثالث

وفي أحد الأيام ، جاءني جينو يقول ان سيدته قد سافرت مع وصيفاتها إلى أحد المصايف للاستجمام ، كما أن جميع العاملين في القصر قد رحـــلوا لقضاء عطلاتهم بين اهلهم وأقاربهم ولم يبق في القصر سواه وخادم الحديقة .

ثم اقترح علي زيارة القصر برفقته للتفرج على ما يحويه من تحف ثمينة وأثاث فاخر ، فرحبت باقتراحه بلا تردد ورافقته إلى القصر .

ولكي يزيل كل أثر للمخاوف من نفسي ، التفت إلي عند باب القصر وقال :

– لن نمكث طويلاً في القصر يا ادريانا !

وفي داخل القصر رحت انتقل من غرفة إلى أخرى وقد عقدت الدهشة لساني لأنني لم أشاهد قبل اليوم قصراً بهذه الفخامة والبذخ فالغرف قد زخرت بالأثاث المتقن الجميل، تغطي نوافذها الستائر المخملية التي تحاكي بألوانها السجاجيد الشرقية الثمينة المكسوة بها الأرض ، وتتدلى في اجوائها الثريات الكهربائية الغالية ، ورحت اقابلها بأثاث منزلنا الحقير ، فشعرت بغصة في نفسي واستحوذ علي أسى شديد .

وفي الطابق الثاني من القصر ، حيث يقع جنـــاح سيدة جينو الخاص ، شاهدت السرير الكبير الفخم الذي ترقد عليه ، وإلى جواره منضدة الزينة وقد

صفت على رفوفهـــا البلورية زجاجات العطور الثمينة وأنواع المساحيق وأدوات التجميل .

وعندما فتح جينو احدى الخزائن الخاصة بالملابس ، وجدتها زاخرة بشتى أنواع الأثواب المخملية والحريرية ومعاطف الفراء النادر .

ولأول مرة احسست في قرارة نفسي بالحسد يأكل صدري ، وتمنيت من صميم فؤادي ان اصبح غنية مثل سيدة جينو لأتمكن من ارتداء مثل هذه الثياب الفاخرة ، وأسكن مثل هـــذا القصر ، وفجأة امسكت بكتف جينو وقلت له بعصبية :

ـ لمـاذا تحرص على عرض هذه الثياب أمام عيناي ؟ !

لقد ظننت انك تريدين التفرج عليها .

ـ ان هذه الثياب لا تهمني ! وأنا لم احضر الى هنا للتفرج عليها .

فالتفت إلي وقد اتسعت حدقتاه متسائلاً عن سبب التغير الفجـــائي الذي أصابني . بينما أردفت قائلة :

أنا افضل زيارة غرفتك والتفرج عليها !

ـ انها في الطابق الأرضي ، هل تريدين حقاً زيارتها ؟!

فحدجته بنظرة وقحة وقلت له :

ـ لمـاذا تحاول اخفاء نواياك عني ؟!

فبان التردد في حركاته وتمتم قائلاً :

ـ انت تعلم انني لم ارافقك الى هنا للتفرج على ثياب سيدتك وقصرها الفخم بل لأرتمي بين أحضانك وأسلمك جسدي .

ولا أكون مغالية اذا قلت انني انا نفسي قد دهشت للجرأة والقحة التي اظهرتها في ذلـــك الموقف ، ولست ادري كيف انقلبت فجأة من فتاة بريئة خجولة الى اخرى تدفعها شهوات جسدها الثائر الى بذل شرفها الغالي على أهون سبيل .

كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله على الكون ساعة قادني جينو الى غرفته الكائنة في الناحية الخلفية من القصر .

وعندما اغلق الباب خلفه وصرنا في الظلام الدامس ، رحنا نتبادل القبلات التي لم يكن جينو يقطع حبلها إلا ليهمس في اذني بكلمات الحب والإغراء ظناً منه انني لن ادعه ينال مني وتراً ، غير عالم بأنني كنت اتحرق شوقاً ولهفة لهذه اللحظة التي انتظرتها طويلاً بعد ان فقدت السيطرة على ذلك الحيوان الثائر في جسدي .

وبدافع من هذه النوازع الجسدية رحت اخلع ثيابي وأطرحها ارضاً دون وعي ، ثم جذبت جينو الى سريره المتواضع ، وما ان احتوانا السرير حـــتى استسلمت له بلا مقدمات وبسهولة لم يكن يتوقعها .

وعندما انتهينا وجدت ان عملية الحب التي قمنا بها أمر طبيعي لا غبار عليه ولا حرج ، وهي متعة جسدية ضرورية ، يتسابق الفقير والغني على الحصول عليها ، كل بوسائله الخاصة .

غير اني ما لبثت ان ثبت الى رشدي ، فانتابتني الأفكار السوداء خشية أن يعدل جينو عن الزواج بي بعد أن نال مني مأربه .. فرحت اذكره بوعوده ومشاريعه للزواج ، وكان جينو لبقاً لطيفاً فراح يؤكد لي نواياه الطيبة ، وإنه سوف يعمل جاهداً لتوفير المال الكافي لتأثيث منزل صغير لنعيش فيه زوجين متحابين ، وقلت له :

ـ اتمنى ان نحصل على بيت صغير مؤلف من غرفتين ، وسوف ترى كيف اني سأحرص على ترتيبها وتنظيفها يومياً .

وهكذا قضينا الوقت ونحن نتجاذب اطراف الحديث عن حياتنا القادمة ، وانقضت الساعات بسرعة لم أتوقعها ، ولم انتبه إلا والساعة الكبيرة القريبة من القصر تعلن انتصاف الليل ، فنهضت مذعورة وقلت لجينو :

يا إلهي .. ماذا سأقول لأمي وأنا لم يسبق لي ان تأخرت عن البيت الى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

ـ قولي لها اننا حضرنا مسرحية في أحد دور التمثيل وإننا لم نكن لنتأخر لولا طول الرواية التمثيلية .

ـ انها لن تصدق كلامي .

ورافقني جينو بالسيارة حتى عتبة الباب الخارجي وانصرف عائداً . فتناولت المفتاح من حقيبتي بحذر وفتحت الباب بكل تمهل حتى لا أوقظ امي ، ثم خلعت حذائي ورفعته تحت ابطي وسرت حافية على اطراف اصابعي متجهة الى غرفتي والظلام الدامس يشملني .

وفجأة شعرت بيد قوية تمسك بشعري وتشده بعنف ، فاستدرت مرغمة لأواجه امي التي كانت في حالة من الغضب الشديد ، وبطرفة عين كانت قد طرحتني على اريكة قريبة وراحت تنهال علي بيديها ضرباً ولكماً .

لقد حاولت ان ادافع عن نفسي وأن أتحاشى ضرباتها وأنا أتوسل اليها ، ولكن بدرتي هذه لم تكن إلا لتزيدها غيظاً ، فلجأت الى قدميها تركلني بهما في جنبي .

وأخيراً ارتمت قربي على الأريكة وهي تلهث من التعب ، وبعد أن استراحت

بضع لحظات نهضت الى النور فأضاءته ثم عادت تحدق في وجهي وتتفحصني من قمة رأسي حتى اخمص قدمي وقالت :

– اراهن انك ارتكبت هذه الليلة حماقة كبرى .. أليس كذلك ؟

لقد حاولت ان اصارحها وأن اوجد لعملنا مبرراً طبيعيـــاً ، ولكنني خشيت ان تعود إلى ضربي وتأديبي بقسوة مما ألجأني الى الكذب فقلت :

– انا لم ارتكب اي حماقة لقد كنت مع جينو نشاهد مسرحية .

فرفعت يدها في وجهي مهددة وقالت :

– ولكنني اجزم انك فقدت اعز ما عندك هذه الليلة ، انظري الى وجهك في المرآة . انك تبدين صفراء الوجه محمرة العينين ونظراتك تائهة .. ان دلائل الاثم واضحة جلية على وجهك .. فلم النكران ؟

– ان احمرار عيني واصفرار وجهي نتيجة طبيعية للسهر الطويل الذي لم أعتاد عليه .

ومن خلال هذه المناقشة الطويلة بيني وبين أمي اتضح لي انها تريد معرفة ما إذا كنت قـــد استسلمت لجينو أم لا ، لا لتأنيبي بل لهدف خفي لم تطلعني عليه !.. ولما لم أعترف لها بالحقيقة انتصبت واقفة وجذبتني من ذراعي :

وهكذا جرتني خلفها متجهة بي خارج البيت ، إلى الشارع القريب ، نحو الصيدلية الوحيدة ، حيث وقع نظري في داخلها على الصيدلي وطبيب ثم خاطبته أمي قائلة :

– هذه ابنتي وأرجوك أن تفحصها بدقة يا سيدي الطبيب ..

وقبل ان يبدأ الطبيب بفحصي في الغرفة الداخلية التي قادني اليها التفت إلى أمي وسألها :

ـ مما تشكو ابنتك ؟

ـ لقد سلمت نفسها الى خطيبها هـــذه الليلة .. وهي تحاول ان تتكتم ، فأرجو أن تفحصها وتعلمني بالحقيقة .

فارتسمت على شفتي الطبيب ابتسامة عريضة وقال لأمي :

ـ ليس هذا من اختصاصي ، ويمكنك أن تكلفي طبيباً أخصائياً لإجراء مثل هذا الفحص .

ولكن امي صاحت بأعلى صوتها قائلة :

ـ عجباً . ألست طبيباً من واجبك أن تعاين الناس وتشخص الدواء ؟ هذه ابنتي فافحصها .

وحيال اصرار أمي وصياحها المتواصل قام الطبيب بعمله ، بينما كان عرق الخجل يتصبب من على جبيني ، ثم التفت الى أمي قائلاً :

ـ لقد كنت على صواب .. وطالمـــا أنهما مخطوبان فلا بد أن يتزوجها وينتهي كل شيء .

كانت أمي تستمع الى الطبيب دون أن تحاول التعقيب على تعليقاته ، بل رفعت حقيبة يدها قائلة :

كم تريد يا سيدي ؟

لم أكن أتوقع ان يرفض الطبيب المـــال مقابل أتعابه خصوصاً بعد هذا الإزعاج الذي سببناه له بعد منتصف الليل ، ولكن الواقع أنه رفض أن يتقاضى أجره ، فشكرته أمي وغادرنا الصيدلية في طريقنا الى البيت وأنا أعد الدقائق بانتظار أن تثور علي وتوجه لي الإهانات .

ولكنها كانت تبدو هادئة وكأنه لم يحدث ما يستحق الذكر ، وقبل أن آوي الى حجرتي أعدت لي عشاءً دسماً ثم جلست تراقبني وأنا أتناوله .

وفيما أنا ألتهم عشائي بشراهة بادرتني بقولها :

– ألم يفكر جينو اللعين بأن يقدم لك شيئاً من الطعام ؟ هكذا الرجال ، انهم أوغاد لا يفكرون إلا بملذاتهم .

فقلت لها وأنا أحاول الدفاع عن جينو :

– لا تحقدي عليه يا أمي فهو ليس كباقي الرجال .. لقد وعدني بالزواج وسيفي بوعده قريباً .

فأجابتني بسرعة :

– انني لست حافظة عليكما .. ودعي هذه المسألة الآن ولا تذكريها .

والحق يقال انني لم أرتاح لتصرفاتها وهدوئها المريب فسألتها :

هل أنت واثقة ان جينو لن يفي بوعده ويتزوجني ؟

فتأففت من إلحاحي وأجابتني بنفاذ صبر :

– قلت لك دعي هذه المسألة الآن .

ولكني عدت أسألها بعناد :

– وهل انت مسرورة لهذه النتيجة ؟

فأجابتني بتحد :

– أجـــل انني مسرورة لأنني متأكدة الآن ان جينو لن يتزوجك وأنه سيهجرك بعد ان نال منك مبتغاه .

– انه لن يتركني . وأنا متأكدة من ذلك .

فعادت تقول :

ـ لن يتزوجك .. لأنه لو كان ينوي الزواج منك لما حاول أن ينالك قبل الزفاف ، لقد كنت مصدر تسلية له مدة من الزمن وسيهجرك قريباً .. وأنا مسرورة لأنه لن يتزوجك لأن زواجه منك يعني دمارك .

وهنا كانت الدموع الغزيرة قد بدأت تنهمر من عيني فصحت فيها قائلة :

ـ لقد فهمت الآن .. انك لا تريدينني أن أتزوج ، انك لا تريدينني أن أكون أسرة لأنك تحاولين أن تجعلي مني فتاة من بائعات الهوى .

فانتهرتني بحدة وقالت :

ـ انك حقاً لناكرة للجميل أيتها الشريرة ، انني أسعى جهدي لإسعادك .

قالت ذلك ثم نهضت من أمامي في طريقهـــا إلى المطبخ وهي تحمل معها الصحون الفارغة .

ولمـا خلوت إلى نفسي رحت أستعرض أقوال أمي ، وبعد تفكير طويل خرجت مقتنعة بأن جينو لن يهجرني وأن ظنون أمي ليست في محلها .

عندما التقيت بجينو في اليوم التالي ، تعمدت ألا أطلعه على المناقشة الحادة التي جرت بيني وبين أمي كيلا أغيظه وأجعله يحقد عليها ، وفي أثناء نزهتنا فاجأني بقوله انه قرر أن يتم زفافنا بعد مضي خمسة أشهر ، فصحت فرحة مستبشرة لهذه المفاجأة السارة ورحت أشبعه لثماً وتقبيلاً .

وفي غمرة سروري صارحته قائلة :

ـ لقد ظننت انك ستعدل عن الزواج بي بعد الذي حدث بيننا ليلة أمس .

ـ وهل أسأت الظن بي إلى هذه الدرجة ؟!

ـ كلا أنا لم أسيء الظن بك .. ولكن بعض الرجـــال الأوغاد يلجأون الى هذه الوسيلة .

– هل تبرهنين لي عن حبك الصادق بهـــذه الطريقة فتضعيني في مصاف الأوغاد ؟

ولكنه لم يقتنع بأقوالي بل ادار محرك السيارة وأطلق لها العنان بسرعة جنونية وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة وقـــد انقلبت سحنته وبان الغضب الشديد على قسماته .. فرحت أتوسل اليه ان يوقف السيارة وأن لا يحمل اقوالي على محمل الشك ، ولكنه لم يعبأ بي .

– عندما تقولين شيئاً ، فمعنى ذلك انك تعتقدين بصحته .. وبعبارة أوضح انك لا تحبينني حباً صادقاً .

ولكنني أؤكد لك انني احبك حباً لا تشوبه شائبة .

– ولكن أنا لا أحبك ! لقد خدعتك وفي نيتي أن أهجرك قريبـــاً أفاهمة انت ؟!

فانفجرت باكية منتحبة بصوت مرتفع ورحت أشده من ذراعه قائلة :

– لمـاذا تتلفظ بمثل هذه الأقوال .. وبماذا أسأت اليك ؟!

– لقد ضقت ذرعاً بتصرفاتك .

وهكذا استمرت السيارة بانطلاقها الجنوني باتجـــاه المرسم ، وخيم علينا الصمت المطبق .

وبعد أن تحققت من المصير الاسود الذي ينتظرني فيما لو كان جينو جاداً في حديثه ونفذ وعيده وهجرني ، وبدافع من هـــذا اليأس القاتل ، فتحت باب السيارة وتدليت منها إلى الخارج وأنا اقول بلهجة صارمة حازمة :

– اما ان توقف السيارة او ان ارمي بنفسي تحت عجلاتها .

وكانت حيلة بارعة . فإذا به يخفف من سرعة السيارة تدريجياً ثم ينحرف بها الى بقعة خالية تخفيها بعض الخرائب عن الأنظار ، وهناك أوقف محرك السيارة والتفت إلي بصبر نافذ وقال :

– والآن تكلمي . ماذا تريدين مني ؟

وفي تلك الساعة كان قد رسخ في ذهني أن جينو مصمم على هجري إلى الأبد لذلك رحت أتوسل اليه ودموعي الغزيرة تبلل يديه ووجهه ، واعترفت له بأنني أحبه حباً خالصاً ، وإني لن أقوى على فراقه ، ولكي اقنعه بالعدول عن قراره ، ذهبت معه الى أبعد من ذلك فصارحته بأنني أقبل بأن أكون عشيقته ، وعلى الرغم من تظاهره بأنه يعارض اقتراحي الأخير ، فقد تخلى بعد حين عن عناده وغضبه وأتاح لي ان اطرق رأسه براحتي ، وأن أمتص شفتيه بنهم ، ويبدو انني تمكنت من إثارة أعصابه بسهولة ، فانتقلنا بعد دقائق معدودة إلى المقعد الخلفي من السيارة حيث سلمته جسدي للمرة الثانية رغبة مني في الاحتفاظ به بعد ان عجز لساني عن اقناعه .

وعادت المياه إلى مجاريها بيننا ، وكأنه لم يحدث شيء يعكر صفو حبنا ، فعاد يحدثني عن مشروع زواجنا والاستعدادات التي يقوم بها ، مما جعلني أعتقد انني كنت واهمة عندما شككت في قصده .

وفي سياق الحديث عرضت عليه أن نشارك أمي منزلها المتواضع لا سيما وأن في المنزل غرفة مهجورة يمكن ترميمها وتنظيفها فتصبح صالحة للسكن ، فوافق على اقتراحي .

وكانت أمي رغم فقرها ومواردها المحدودة تحتفظ بمبلغ من المال ، فرجوتها أن تمنحني هـــذا المبلغ لأستعين به على إصلاح الغرفة وشراء بعض الثياب الضرورية لي .. وكنت أتوقع أن تثور لطلبي هذا ، ولكني دهشت عندما رفعت رأسها الي وقالت :

– ان المبلغ الذي أقتصده هو لك بكامله ، ويمكنك أخذه ساعة تشائين ، وبالمناسبة هل وعدك جينو بالمساهمة معك بالنفقات ؟

– أجل ، لقد اقتصد هو الآخر بعض النقود من مرتبه المتواضع .

– كنت وما زلت أشك في نوايا جينو نحوك ، والأيام المقبلة ستبرهن لك صدق حدسي .

فرحت ادافع عن جينو بحماس محاولة إبعاد كل شبهة أو ريب عن تصرفاته ، ولكن أمي رفضت سماع دفاعي وحسمت الموقف قائلة :

– انت حرة التصرف الآن ، وقد اخترت لنفسك هذه الطريق فاستمري في سلوكها .

وتتابعت الأيام وأنا منهمكة في إصـــلاح حجرة زواجنا ، وإعداد ثيابي الداخلية ، وبعض الأثواب البسيطة ، ومع ذلك لم انقطع عن الاجتماع بجينو في كل صباح وأحياناً في الأمسيات لحضور أحد الأفلام أو لقضاء السهرة في أحد المراقص الليلية .

وفي ذات مساء نقدني جينو مبلغاً بسيطاً من المال مساهمة منه في النفقات ، ولمـا عدت الى البيت أطلعت أمي على ذلـــك وأنا أكاد أطير من الفرح ، فابتسمت قائلة :

– ان هذا المبلغ الزهيد يزيدني اقتناعاً بصحة رأيي فيه ، وأؤكد لك أنه لم يدفع هذا المبلغ إلا ليذر الرماد في أعيننا .

فلم أحاول مناقشة أمي ، وانسحبت إلى حجرتي ، أحلم بالمستقبل السعيد الذي ينتظرني مع جينو .

عشت في تلك الأيام حياة مرحة طروبة ، أرى كل ما حولي جميلاً ، وكانت سعادتي تتضاعف ، عندما كنت أختلي بجينو ونتجاذب أطراف الحديث عن سعادتنا المقبلة .

وكانت هذه الخلوات تبدأ دائماً بالقبلات والمداعبات ، وتنتهي ونحن غرقى في بحر زاخر بالشهوات ، ولم نكن نفترق إلا منهوكي القوى صفر الوجوه .. وأقولها صراحة انني أصبحت مولعة جداً بعملية الحب ، إذ كانت تملأ نفسي متعة وسعادة .. وأنا أشك في ان يكون جينو نفسه قد أحب عملية الحب هذه بالقدر الذي احببتها أنا لأنني كنت اشعر في قرارة نفسي انني مندفعة اليها بكل جوارحي .. وفي ذلك الحين ما كنت أتصور أنه يمكن لأي رجل غير جينو ان يوفر لي هذه اللذة الجسديه العارمة !

لقد كانت فكرة الزواج من جينو تسيطر على نفسي ومشاعري ، ومن أجل ذلك رحت أساعد أمي في عملها لكي نتمكن من توفير بعض المـــال لإتمام الاستعدادات الضرورية للزواج ، فكنت أسهر معها الساعات الطوال في الليل ، اجهد نفسي وصحتي ، بالإضـــافة الى تعبي في عملي كنموذج للرسامين خلال النهار .

ولمـا رحت أطوف المحلات التجارية لشراء حاجياتي من أقمشة وخلافها ، اصطدمت بحقيقة مروعة هي أن لا سعادة بلا مال .. فحز في نفسي اني خلقت فقيرة ، رغم ما أتمتع به من جمال وفتنة طاغية ولكي أتنامى هـــذا الظلم ، انغمست أكثر فأكثر في حب جينو ، إذ كان الحب بالنسبة لي هو اللذة الوحيدة من ملذات الدنيا التي أحصل عليها بلا مال .

وكان يوم وصول أثاث الحجرة الجديد ، من أسعد أيام حياتي ، وكنت قد طليت جدران الغرفة بالطلاء الأبيض ، وقمت بتنظيف البلاط ، والأبواب ،

والنوافذ ، حتى بدت نظيفة ، وعندما انتهيت من ترتيبها جلست على السرير الجديد اجيل النظر في الحجرة وأنا لا أكاد أصدق أن هذا الأثاث قد أصبح ملكي الخاص لا ينازعني فيه منازع ، ورحت أتخيل سعادة جينو عندما يقع نظره على فردوسنا الصغير ، وتمنيت من صميم قلبي أن يسرع دوران الزمن حتى تزف ساعة زواجنا فنصبح أسعد زوجين .

* * *

الفصل الرابع

وتعرفت على جيزالا .. انها تعمل معي في نفس المرسم ، وهي تكبرني ببضع سنوات ، ممشوقة القامة ، بيضاء البشرة ، تتمتع بنوع خاص من الجمال والفتنة ، وكانت فتاة لعوباً ، تحب المرح ، وتهوى اقتناء الثياب الجميلة ، وعلى الرغم من طيبة قلبها ، إلا انها كانت عصبية المزاج تثور لأتفه الأسباب ، ومنذ اليوم الذي تعارفنا فيـــه راحت تتودد إلي وتسدي إلي النصائح والإرشادات ، وهكذا توثقت بيننا عرى صداقة متينة ، وأصبحنا صديقتين حميمتين .

وذات يوم دعتني للخروج معها ، وفي أحـــد المطاعم البعيدة عن ضوضاء المدينة ، قدمتني إلى صديقها ريكاردو وقالت انه خطيبها ، فألقيت نفسي حيال رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ، منتفخ الخدين ، ساذج ، يحب اللهو والمسرات ، وقد علمت فيما بعد أنه يغدق على جيزالا المـال والملابس الجميلة والعطور بسخاء ، وكان والده يملك محلاً تجارياً كبيراً يدر عليه أرباحاً وفيرة ، أما بدعة الزواج التي تمسحت بها جيزالا فلم تخطر له على بال ، وكان كل همه الاحتفاظ بجيزالا كمشيقة له .

وكانت جيزالا تتفق مع أمي في طريقة نظرتها إلى الحياة والسعادة ، وكثيراً ما كانت تنحي علي باللائمة لغباوتي وجهلي وعدم استغلالي لجمالي للحصول على الثياب الجميلة والمال الوفير .

وأخيراً لم أجد بداً من مصارحتها بعلاقتي بجينو ، وقلت لها اننا متحابان ، وأننا سنعقد زواجنا في القريب العاجل ، ولكنها ما ان علمت بأن جينو ليس إلا سائق سيارة حتى لامتني على هذا الاختيار ، ثم طلبت مني أن اجمعها به لتبدي رأيها في أخلاقه بوصفها أكثر خبرة مني بالرجال .

لقد كانت جيزالا أعـــز صديقاتي ، كما كان جينو خطيبي ، لذلك لم أجد غضاضة في اتمام التعارف بينهما ، وهكذا اجتمعنا في احدى الحانات المتوسطة حيث قدمت جينو إلى جيزالا .

ولقد لاحظت أن جيزالا لم ترتاح لمنظره أو لحديثه في بادىء الأمر ، بل راحت ترمقه بنظرات حادة : ثم ما لبثت أن قطعت عليه حديثه بقولها :

– لقد كنت محظوظاً جداً عندما وقعت على ادريانا .

– ولماذا ؟ !

فأجابته بخشونة ظاهرة قائلة :

– لأن من عادة سائقي السيارات أن يصادقوا الخادمات .. ولاحظت في تلك اللحظة أن لون وجه جينو قد امتقع ، وأن أوداجه قد انتفخت حنقاً ، ولكنه سرعان ما تمكن من ضبط أعصابه الثائرة وأجابها :

– أنت على حق ، فالسائق الذي كان يعمل قبلي قد تزوج الطاهية .. وكان من الطبيعي أن أقتدي به فأتزوج الوصيفة أو احدى الخادمات ، لأن العادة المتبعة أن يتزوج سائقو السيارات بفتيات من مستواهم .

وصمت لحظة ثم أردف يقول بصوت خشن شديد النبرات :

– كنت افضل ان تكون ادريانا خادمة على ان تكون نموذجاً ، لأنني

لا أتسامح برؤية فتاة مثلها تخلع ثيابها لتقف عارية أمام اعين الرجال .. والأهم في الأمر انها مضطرة بحكم عملها هذا للتعرف على عدد من الأصدقاء .

وعاد للسكوت دون أن يكمل جملته وهو يهز رأسه اسفاً .

ثم تناول علبة السجائر من جيبه وأدناها من جيزالا قائلاً :

– ألا تدخنين ؟

فرمقته بنظرة حادة ، ورفضت ان تأخذ منه لفافة ، ثم التفتت إلي قائلة :

– هيا بنا يا ادريانا يجب ان نذهب ، لقد تأخرنا !

فأسرع جينو إلى النهوض معتذراً عما بدر منه من أقوال صريحة ، وانصرف بمفرده بعد أن تركني مع جيزالا ، ولما خلوت بها طلبت اليها أن تصارحني برأيها فيه ، ولكنها رفضت بادىء الأمر ، ولما ألححت عليها بالسؤال قالت :

– يؤسفني أن اصارحك أنه لم ينل اعجابي قطعياً ، فهو ليس طبيعياً في تصرفاته وحديثه ، كما انه يبدو متعجرفاً عندما يتحدث مع انه ليس أكثر من سائق سيارة .

– ولكني أحبه حباً قوياً يا جيزالا .

– ولكني ارى انه لا يبادلك هذا الحب الصادق ، وسيأتي يوم يهجرك فيه وبذلك ستتحقق فراستي .

في اليوم التالي عندما التقيت بجينو بادرني بقوله :

– لا شك ان صديقتك جيزالا هي من فتيات الشوارع !

فتطلعت اليه دهشة ولكنه أمسك بذراعي وضغط عليه بشدة وأردف يقول :

– اسمعي ، انني أخيّرك بيني وبينها ، فإما ان تقطعي علاقتك بها وإما أن نفترق إلى الأبد .

فرحت أبرر له تصرفات جيزالا وأؤكد له أنها لا تضمر له أي احتقار ، وإنها مخطوبة لشاب غني يغدق عليها المـــال الوفير ، ولكنه لم يقتنع بأقوالي وأصر على قراره قائلاً :

– يجب على خطيبتي ان لا تعاشر الفتيات العاطلات .

وأخيراً ، وحسماً للنزاع ، وعدته بأن أقطع علاقتي بجيزالا ، رغم اني كنت أنوي ، في قرارة نفسي ، أن لا انفذ هذا الوعد .

ولكي لا اغضب جينو وأفقده ، رحت ألتقي بجيزالا سراً في حانة قريبة من المرسم مساء كل يوم ، وفي كل مناسبة كانت جيزالا تتعرض لجينو وتصفه بالخداع والحقارة ، وراحت تثير في نفسي نقطة الضعف قائلة :

– لماذا لا يمنحك جينو بعض المـــال لتشتري ثياباً لائقة ، ان ريكاردو لا يدعني اظهر امامه وفي المجتمعات بمثل هذه الثياب التي ترتدينها .. فلو كان صادقاً في حبه لك لمـا أهملك الى هذه الدرجة .

وكنت اثور لهذه الاتهامات الموجهة لجينو وأؤكد لها ان حبنا متين لا تؤثر فيه هذه الماديات أو الثياب الجميلة !

وذات يوم همست جيزالا في أذني هائلة :

– اسمعي يا ادريانا ، لدي اقتراح يعود عليك بالخير العميم وينقذك من حالة الفقر التي تتخبطين فيها .

فسألتها وما هذا الاقتراح ؟!

أجابتني بعد تردد قليل :

ـ أنت تعلمين ولا شك مبلغ حبي وإخلاصي لك ، فأنا أعتبرك كشقيقة لي ، ان الطبيعة قد وهبتك جمـــالاً ساحراً وفتنة طاغية ؟ فلماذا لا تستفيدين منها لتحصلي على ما تشتهين من ملابس ومال بلا عناء ؟!

وتوقفت بضع لحظات وتنحنحت ثم تابعت حديثها قائلة :

ـ هناك رجل صاحب نفوذ وغني ، وقع نظره عليك فأعجب بك من أول نظرة ، وهو يتحرق شوقاً للتعرف عليك .. فإذا وافقت فأنا مستعدة لأجمعك به .. انه رجل متزوج وزوجته في الأرياف ويهمه أن تظل علاقته بك سرية ، كما لا يهمه إذا استمرت علاقتك بجينو ، حتى ولو تم الزواج بينكما .

فأجبتها بلهجة شديدة :

ـ أشكرك على هذا العرض ، ولكنني أرفضه ! .

ـ أترفضين ، ولمـاذا ؟

ـ لأنني أحب جينو ولن اقبل بمثل هذه العلاقة الأثيمة .

لا تكوني غبية ، ان جينو لن يعلم شيئاً عن علاقتك .. وأرى ان لا تتسرعي في اعطاء الجواب ، ابحثي القضية بينك وبين نفسك .

ـ قولي لذلك الرجل انني ارفض عرضه رفضاً باتاً .

ـ انك مجنونة حمقاء لكي ترفضي مثل هذا العرض السخي .

ولمـا عدت الى البيت أطلعت أمي على ما عرضته جيزالا علي ظناً مني انها ستؤيد موقفي فتطري اخلاصي .. ولكن شد ما كانت دهشتي بالغـــة عندما رأيتها تعتدل في جلستها وتنصت الى حديثي باهتمام زائد وقد أشرقت أساريرها ثم سألتني :

– ومن هو ذلك الرجل ؟ !

– انه رجل غني من الأرياف له كلمة نافذة في الدوائر الحكومية .

– ولماذا رفضت التعرف به طالما أنه رآك وأعجب بجمالك ؟ !

– وما الفائدة طالما اني لا اريده ؟

– يا للخسارة . انه متزوج !.

– حتى ولو لم يكن متزوجاً .. فلن اتزوجه .

فاقتربت مني تربت على كتفي بحنان وقالت :

– ومع ذلك فلا مانع من أن تلتقي به طالما انه رجل غني ونافذ الكلمة وقد أبدى اعجابه بك ، فقد يكون بإمكانه أن يساعدك دون ان يسألك شيئاً مقابل هذه المساعدة !

– ان هذا النوع من الرجال لا يعطي شيئاً دون مقابل .

– حقاً انك غبية .. فقد يأتيك الخير على يدي الرجل .

وأخيراً ، رأيت ان اضع حداً لهذا الحوار فانسحبت الى حجرتي وأنا في أشد حالات الانفعالات والأسى .

وفي ذات يوم من أيام الخريف الجميـــلة جاءتني جيزالا تدعوني الى نزهة في الأرياف مع صديقها ريكاردو ، فقبلت دعوتها شاكرة وتواعدنا على اللقاء في الحانة القريبة من المرسم في صباح اليوم التالي .

وفي الساعة المحددة حضرت لأجد جيزالا تنتظرني مع صديقها في السيارة وقد جلسا في المقعد الأمامي ، بينما وقع نظري على رجل حسن الصورة ، أنيق المظهر ، يجلس وحيداً في المقعد الخلفي ، وما ان لمحتني جيزالا حـــتى بادرت بدعوتي إلى الجلوس إلى جانب ذلك الرجل الغريب ، فترددت قليلاً متظاهرة

بالخجل ثم ما لبثت أن اتخذت مكاني الى جواره ، فحياني بأدب وبشاشة وقال لي وهو يقدم نفسه معرفاً ، ان اسمه ستيفانو استاريتا .

وانطلقت بنا السيارة في طريق تكتنفها الأشجار المثمرة عن الجانبين ، وبعد أن قطعنـــا مسافة طويلة ، لفت نظري ان ستيفانو يضع في اصبع يده اليسرى خاتم زواج وخاتماً ماسياً آخر ، فقلت له :

ـ يا له من خاتم جميل وثمين !

ـ لقد ورثته عن المرحوم والدي .

ـ وهل أنت متزوج ؟

ـ نعم اني متزوج .

ـ وهل امرأتك جميلة ؟

ـ انها ليست بمثل جمالك الباهر على أي حال .

- وهل تعيش معها ؟

ـ كلا .. انها تعيش في بلدة بعيدة بالأرياف بينما أسكن وحدي في المدينة .. وأرجو أن أحظى بزيارتك في منزلي يوماً ما .

فتجاهلت عبارته الأخيرة وكأنني لم أسمعها وعدت أسأله :

ـ ولماذا تعيش وحدك بعيداً عن زوجتك ؟

ـ لقد تم الانفصال بيننا .

ثم صمت برهة ليقترب من أذني هامساً :

ـ لقد سحرني جمالك ، وَجل ما أتمناه ان أراك دائماً بجانبي .

ـ ولكن لم يمض على تعارفنا ساعة واحدة .

لقد وقع نظري عليك من قبل ، وجريت خلفك دون أن تشعري بي ، وقد سحرني جمالك فاستقصيت كل شيء عنك .

– ولكنني مخطوبة .

– لقد أخبرتني جيزالا بذلك .. وهذا لا يهمني كما لا يمنعني من إبداء اعجابي بك ، اني احبك .

– لقد لاحظت ذلك .

– وهل أطمع بأن تبادليني هذه العاطفة ؟.

– لا . .

– انني غني وبإمكاني ان أوفر لك السعادة ولن تندمي .

– ولكني لست بحاجة إلى مالك .

وعاد يؤكد لي حبه وإعجابه الزائد بجمالي ويبدي استعداده للتفـــاني في ارضائي .. ولكي أغير مجرى الحديث سألته :

– أين نحن الآن ؟

– بعد قليل سنصل الى بـــلدة فيتربو حيث نتناول طعام الغداء فيها .. أتعدينني بأنك ستجلسين بجانبي .

– أعدك بذلك ..

وعندما وصلنا إلى بلدة فيتربو ، أوقف ريكاردو السيارة قرب أحد المطاعم ، وبينما كنا نهم بدخول المطعم اقتربت مني جيزالا قائلة :

– هنيئاً لك بهذا الشاب ، فهو غني ومهذب ويليق بك .

– ولكنني رفضت جميع عروضه ، إذ اني ما زلت متمسكة بحب جينو .

– دعينا من ذكر ذلك الوغد ، فهو لا يستحق منك إلا الصفع .

وقبل أن أجيبها على عبارتها الأخيرة ، شعرت بستيفانو يدعوني للدخول قبله ، فسكت على مضض ؛ ودخلت المطعم .

كانت قاعة المطعم الكبرى مزدحمة بخليط عجيب من الرجال والنساء بثيابهم الزاهية البديعة ، وتقدم منا مدير المطعم وقادنا إلى حجرة واسعة تقع في الطابق الثاني كانت خالية ، وقال لنا انها أفضل مكان لتناول طعام الغداء بحرية تامة .

وانتظم عقدنا حول مائدة الطعام ، ووفيت بوعدي لستيفانو فجلست إلى جواره .. ولكنه لم يعلق على ذلك بكلمة واحدة ، بل اعتصم بالصمت المطبق .. ورحت أسائل نفسي عن سبب سكوته الفجائي ، بعد ان كان لدقائق خلت يثرثر ويتفانى في طلب رضائي ؟

وفي هـــذه الأثناء أحضر خادم المطعم أطباق الطعام ، ثم جاء خادم آخر بثلاث زجاجات من النبيذ الإيطالي الجيد .. وقد حركت أنواع الطعام اللذيذة شهيتي ، فرحت ألتهم الطعام بشراهة ملحوظة ، ممـــا جعل جيزالا تعلق على ذلك بقولها :

– تمتعي الآن بهذه المآكل اللذيذة ، فأنت لن تحصلي على طعام جيد ما دمت متعلقة بجينو .

– لمـاذا تسمعينني هذا الكلام ؟! ان جينو سيحصل على المال الكافي الذي يتيح لنا الحياة في سعادة وهناء .

فقهقهت ضاحكة ساخرة من قولي وأردفت تقول :

– انك حقاً لغبية جاهلة لا تدركين معنى الحياة ومتطلباتها .. أنت بحاجة ماسة لرجل غني وسخي ، ليرعاك ويوفر لك السعادة التي تنشدينها .

فسكتت على مضض ، ورحت أتناول طعامي متظاهرة بعدم الاكتراث لهذه الأقوال ، وقد خيم علينا السكون برهة من الزمن ما لبث صوت ريكاردو ان قطعه بقوله :

– لو كنت مكان ادريانا لما تركت فرصة تفلت من يدي ، فأحتفظ بجينو كخطيب ، وأرتبط بعلاقة جديدة مع ستيفانو الغني اللطيف .. وأعتقد أن جينو لن يعارض مثل هذا التدبير .

– انك مخطىء .. فهو لن يقبل بذلك أبداً .. ولو علم انني رافقتكم بهذه الرحلة لفسخ خطبتنا وهجرني إلى الأبد !.

فسألتني جيزالا :

– ولماذا ؟ !

– لأنه لا يريدني أن أصادق أحداً منكم !

– يا له من فقير ، وغد ، سافل ، انه لا يصلح لشيء وسأطلعه على كل شيء وأرى ما هو فاعل .

فتوسلت اليها بقولي :

– أرجوك لا تفعلي ذلك .

– سأفعل .. لأنها الطريقة الوحيدة لإنقاذك من براثن ذلك الوغد .

– ربما كنت على حق .. ولكن رجائي اليك أن لا تقدمي على هذا العمل في الوقت الحاضر .

وظل ستيفانو خلال هذه المناقشة صامتاً ، يحملق بوجهي بشغف ، ثم راح ينتهز الفرصة ليضغط على يدي أو يداعب فخذي بأطراف أنامله .. وقد

حدثتني نفسي بأن أنتهره ، ولكنني خشيت أن تهزأ بي جيزالا .. فتركته يفعل ما يشاء .

وعندما انتهينا من التهام الطعام ، قدم لي ستيفانو قدحاً من النبيذ ، ورجاني أن أشارك الجميع الشراب ، ففعلت .. ولما دارت الخمرة بالرؤوس طوق ريكاردو خصر جيزالا وراح يمتص شفتيها على مرأى مني ومن ستيفانو دون حياء أو خجل !.. وفجأة حانت مني التفاتة إلى جيزالا فإذا بها تغمز بعينها ستيفانو تشجعه على أن يمثل معي نفس الدور ... وعلى حين غرة اقترب مني وأحاط خصري بذراعيه القويتين ، وشدني بقوة محـــاولاً تقبيلي من فمي ، فحاولت التملص من بين يديه فلم أستطع ، بينما راحت جيزالا تحرضه بصوت مسموع ، فازداد جرأة وجذبني بقوة إلى صدره وراح يمطرني بقبلاته المحمومة التي شعرت بهـــا تلسع شفتي ، فصرخت في وجهه لأزجره على وقاحته ، ولكن جيزالا انتهرتني قائلة :

ـ حقاً انك فظة لا تحسنين معاشرة الناس !.. ما الضرر الذي سيلحق بك من جراء ذلك ؟ لقد اندفع اليك يقبلك بلهفة وشوق زائدين وهـــذا يعني أنه متيم بك .

فوجدت أن لا مناص لي من مسايرته ، فاستسلمت لقبلاته وسمحت له بأن يستمر بتطويق خصري ... وكانت الخمرة قد لعبت برأسي ، وأدخلت الغبطة والمرح على نفسي ، فالتصقت بستيفانو ومكنته من تقبيلي عشرات المرات في المواضع الحساسة من صدري وعنقي .. وفي غمرة غبطتي هذه رفعت كأسي وأنا أتمايل من شدة السكر وقلت بصوت متلعثم :

ـ انني مخمورة وسعيدة في الوقت نفسه ..

ثم أفرغت الكأس في جوفي دفعة واحدة ، وارتميت في مقعدي وأنا أردد

أغنية شائعة عن الحب والمحبين .. ثم أسندت رأسي على كتف ستيفانو وأغمضت عيني وأنا لا أنقطع عن الهذيان بأقوال غير مفهومة .

وانتهز الثلاثة هذه الفرصة الذهبية وراحوا يتهامسون فيما بينهم وكنت أسمع أصواتهم ، وكأنها قادمة من مكان سحيق ، ورغم حالة السكر المسيطرة على حواسي أدركت انني محور همساتهم ومؤامرتهم .. وما لبثت أن سمعت ستيفانو يهمس في أذني :

– انك بحاجة ماسة إلى قسط من الراحة فهيا ندخل هذه الحجرة ، وأشار بيده إلى غرفة تقع في الطرف الآخـــر من القاعة .. ولكنني أبعدت رأسي عنه وقلت :

– أنا لا أريد الدخول إلى هذه الحجرة .. دعني أجلس هنا .

وهنا شعرت بيد جيزالا تربت على كتفي قائلة بصوت خافت :

– ولمـاذا تمانعين في الدخول الى الحجرة .. انه لن ينالك بسوء هيـــا ادخلي معه .

فعدت أكرر عبارتي السابقة وأنا مغمضة العينين .. ولكن جيزالا أنهضتني قسراً ، ثم راحت تدفعني باتجاه الحجرة دفعاً وهي تقول :

– ما كنت أعتقد انك غبية إلى هذا الحد .. هيا ادخلي يا عزيزتي ادريانا .

وظل ستيفانو حتى تلك اللحظة صامتاً لا يحرك ساكناً ، ولكن عندما تأكد من إصراري على عـــدم الدخول إلى الحجرة اقترب مني يهمس في أذني بصوت متلعثم :

– من الأفضل أن تدخلي معي الى الحجرة وإلا اضطررت لإطلاع جينو على تفاصيل هذه الرحلة ، وسوف أزيد بأنك قد استسلمت إلي بسهولة !

فارتشت مفاصلي ، وكأن سلكاً كهربائياً قد مسّني ثم رحت أستعرض موقفي بشوان معدودة ، فتأكدت أنه عازم حقاً على تنفيذ وعيده إذا لم أستجب لرغباته .. ووجدت نفسي مغلوبة على أمري ، وأنا أتخبط في حالة حرجة جداً عزلاء من أي سلاح .

والذي حدث لي في تلك الساعة هو ما يحدث غالباً لبعض الفتيات الفقيرات الساذجات البريئات مثلي ، عندما يغدر بهن القدر لأول زلة ينزلقن فيهـــا ، فيقضي على آمالهن ويجبرهن على أن يدفعن لطيشهن ثمناً غالياً جداً ان من دمائهن أو من شرفهن !.

وأدركت بطريقة عين ما ينتظرني من مصير قاتم وبؤس وشقاء فرحت أنشج بالبكاء بصوت مرتفع لأفرج عن نفسي .. والبكاء هو سلاح المرأة عندما تصبح في مثل موقفي عزلاء عاجزة عن المقاومة .

وانتهز ستيفانو هذه المناسبة وأسرع يواسيني بكلمات رقيقة ويمسح دموعي الغزيرة بمنديله الحريري المعطر ، بينما راحت جيزالا تشجعني بكلمات مبهمة .. ولم أشعر إلا وقد أصبحت مع ستيفانو داخل الحجرة وقد أغلق علينا الباب .

وهكذا استسلمت لمصيري المحتوم دون مقاومة ، وكنت افترض ان ستيفانو سيتصرف معي كما يتصرف المحب مع عشيقته المفضلة ، فيحاول إثارة غرائزي الجنسية بمداعباته وملامساته اللطيفة فأمنحه ما يريد ، ولكنه تصرف على عكس ذلك تماماً ، إذ طرحني على أريكة موجودة في زاوية الحجرة ورمى نفسه علي وراح يعبث بمفاتني بعصبية ظاهرة وشغف ونهم زائدين .. ثم وصل إلى هدفه بسرعة عن هذا الطريق .

وقبل أن يغادر الحجرة سألني بصوت متهدج :

– هل ما زلت حاقدة علي ؟!

– كلا . .

– انني أحبك .. بل أعبدك .

وراح يغمرني بقبلاته الحارة وكأنه لم يرتو مني ، فتركته يفعل وما لبث بعدها أن خرج من الحجرة قبلي ليتيح لي إصلاح زينتي !

وعندما عدت إلى مكاني على مائدة الطعام ، بادرتني جيزالا قائلة :

– يا لك من ماكرة ، لقد حاولت الظهور أمامنا بمظهر البراءة .

ولكن ستيفانو لم يدعها تكمل عبارتها إذ قاطعها بقوله :

– لا تحاولي التعرض لها بأي سوء يا جيزالا .. فأدريانا فتاة تستحق كل تقدير ومحبة .

وسكتت جيزالا على مضض ، وفي تلك اللحظة قدمت لنـــا القهوة فرحنا نرتشفها ، وقد خيم السكون فوق رؤوسنا ؛ ولمـا انتهينا من تناول القهوة كانت الساعة قد جاوزت الخامسة ، فغادرنا المطعم متجهين نحو السيارة ، وفي أثناء الطريق اقتربت مني جيزالا وتأبطت ذراعي قائلة :

– ما بالك مهمومة يا عزيزتي ؟! إذا كنت قلقة من أجل جينو فتأكدي أن ريكاردو وأنا لن نطلعه على شيء مما حدث .

– انني متعبة فقط .

– أرجو أن لا تكوني حاقدة علي .

– كلا أنا لست حاقدة عليك .. لقد كنت تشيرين علي بأن أترك جينو لأنه لا يصلح لي .. وقد تكونين على صواب ..

فبان الارتياح على وجهها ، وراحت تشد على ذراعي دليل امتنانها ، وإلى

هنا كنا قد اقتربنا من السيارة ، فاحتل كل واحد منا مكانه السابق ، وسارت بنا نحو روما !.

وبعد أن قطعنا مسافة طويلة أحسست بيد ستيفانو تلامس يدي وتضع فيها ورقة مطوية تبينت فيها ورقة نقدية ، فهممت بأن أقذفها في وجهه غاضبة ، ولكني عدلت عن قراري هـــذا فوراً ، لئلا يسيء فهم قصدي ، ومع انني قررت قبولها ، إلا انني أبديت بعض المعارضة الشكلية ، فأعدت الورقة اليه ، ولكنه ما لبث أن أعادها إلي بإلحاح .. وحيال ذلك احتفظت بها في يدي ، ورمقته بطرف عيني فلاحظت أن دلائل الارتياح قد بانت على محياه .. ثم تناول يدي وطبع عليها قبلة .

ومرت هذه المحاورة الصامتة دون أن يشعر بنا ريكاردو أو جيزالا .. وبعد ذلك خيم السكون مرة أخرى علينا حتى وصلنا إلى روما .

وأسرعت إلى حجرتي أختلي بها ، وأول عمل أقدمت عليه أن تبينت قيمة الورقة النقدية ، فإذا هي بقيمة ألف ليرة ، فأحسست بالغبطة تملأ نفسي لحصولي على هذا المبلغ ، ولأن بواسطته يمكنني تسديد بعض ديوني ، وشراء ما يلزمني من حاجيات ضرورية .

وأقولها صراحة انني ، لأول مرة في حياتي ، أحصل على هذا المبلغ الضخم دفعة واحدة .. فرحت أضم الورقة النقدية إلى صدري بسرور زائد ، لأن فقري المدقع جعل رؤية المال بين يدي يعد سعادة ونعمة زائدة !

في صباح اليوم التالي ، وطدت العزم على تناسي مغامرتي في بـــلدة فيتربو لأواصل جهودي في الاستعداد للزواج .

وفي طريقي إلى المرسم التقيت بجيزالا ، فلم تشر ولو بكلمة واحدة إلى رحلة الأمس .. فقدرت لها هذه البادرة الطيبة !

أما جينو فكنت أحسب ألف حساب للقائي القادم به ، لأنني كنت مضطرة إلى اللجوء للكذب والخداع معه ، وأحسست بتأنيب الضمير ، وكانت مغامرة فيتربو تجثم كالعبء الثقيل فوق كاهلي ، وخشيت أن تخونني أعصابي فأنفجر باكية ، وأصارح جينو بما حدث وأطلب منه الصفح والغفران .

وعندما التقيت به وجلست الى جـــواره في السيارة كالعادة لاحظ اضطرابي فسألني :

– أراك مضطربة فما أصابك ؟

وكدت اطلعه على الحادثة المشؤومة ، حتى ولو ركلني برجله وطرحني من السيارة بازدراء كلي .. ولكن الشجاعة خانتني ، فانفجرت باكية وسألته :

– هل تحبني حقاً يا جينو ؟!

فالتفت إلي مدهوشاً وقال :

– ما هذا السؤال السخيف ؟ !

– وهل سنتزوج قريباً ؟ !

فبان التردد عليه بعض الشيء ثم صاح في وجهي غاضباً :

– الذي يسمعك ترددين على مسمعي هذه الأسئلة يعتقد أنك لا تثقين بي .. ألم أقل لك اننا سنتزوج يوم عيد الفصح المقبل ؟!

– أجل . .

– ألم أمنحك بعض المال لكي تنفقيه على شراء أثاث البيت ؟

– أجل . .

ـ اذن فهذا دليل على اني رجل يحترم كلمته وينفذها .. وأراهن أن امك هي التي تحاول إفساد علاقتنا بشكوكها وتصرفاتها الشاذة !

ـ كلا .. ليس لأمي علاقة بالموضوع فقد تركت لي الحرية التامة .

وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات ، قصدت الى كنيسة صغيرة كنت أتردد عليها عندما كنت فتاة صغيرة ، وركعت أمام تمثال السيدة العذراء ، ورحت أتلو صلاة طويلة وأنا أذرف دموع الندم ، طالبة منهـــا وهي الأم الرؤوف لجميع الفتيات الملهوفات اليائسات ، أن تساعدني في محنتي وتصفح عني ، كما ذكرت في صلاتي أمي وجينو ثم جيزالا وستيفانو .. أجل ستيفانو وستارينا ، الذي كان سبباً في تعاستي وإثمي .

وبعد أن أنهيت صلاتي وتضرعاتي ، قصدت إلى كاهن الكنيسة كي أعترف ..

كانت الكنيسة في تلك الساعة من النهار خالية من المصلين ، ولهذا لم أجد الكاهن في مكانه من المذبح أو في حجرة الاعتراف ، ورحت أجول ببصري في أرجاء الكنيسة لعلي أجده ، وبعد برهة قصيرة لمحت راهباً شاباً جميل الصورة ، حسن المظهر ، يخرج من خلف المذبح ويسير متمهلاً نحو الخارج ، فتقدمت منه ورجوته أن يسمع اعترافي ، فأشار علي بالدخول إلى كرسي الاعتراف ، بينما ولج هو إلى صومعته المجاورة ، وراح يتلو صلاة قصيرة بصوت عذب ، ثم أبدى استعداده لتلقي اعترافي .

فرحت أسرد على مسامعه علاقتي بجينو ، ثم أطلعته على تفاصيل مغامرة فيتربو دون أن أخفي عنه شيئاً ، وبعد أن أنهيت اعترافي سمعته يقول لي بصوت قوي النبرات ، تبينت من لهجته أنه فرنسي الأصل :

ـ لقد ارتكبت خطيئة كبرى ومزدوجة ..

فأجبته بصوت مرتجف :

– أجل يا أبت .. لقد تبينت خطئي فيما بعد .

– انك باستسلامك لذلك الرجل قد خضعت لنزواتك الشريرة ، ولهذا كان من الأفضل أن تفسخي خطبتك لا أن تقدمي على ارتكاب مثل هذه الخطيئة الكبيرة ! لأنه إذا تزوجت فلن تكوني زوجة صالحة مخلصة !

– بلى .. سأكون زوجة صالحة لأني نادمة على ما فعلت .

– إذا كنت حقاً نادمة ، فإن عليك أن تسرعي بالزواج من خطيبك .

– لقد طلبت اليه الإسراع ، فحدد موعداً لذلك يوم عيد الفصح القادم .

– بل يجب أن تتزوجي فوراً !

– من الصعب علينا أن نعقد زواجنا قبل إنجـــاز الاستعدادات وشراء الملابس الضرورية، كما أنه يريد أن يسافر إلى بلدته ليطلع أهله على موعد زفافنا .

– على كل حال ، يجب أن يتم زواجكما في أقرب وقت ممكن ، وخلال هذه الفترة عليك أن تقطعي كل علاقة جسدية مع خطيبك لأن مثل هذا العمل يعد خطيئة .

– سأفعل ما أوصيتني به يا أبت !

وقبل أن أنصرف طلب إلي أن أردد في كل مساء بعض الصلوات الخاصة لإظهار ندامتي ؛ ثم تلوت وراءه صلاة أبانا الذي في السماوات ..

والتقيت بجينو في اليوم التالي فأخبرني أن سيدته عازمة على قضاء بضعة أيام في الأرياف مع وصيفتها وخدمها ، وبذلك ستسنح لنـــا الفرصة للقاء في

قصرها .. وكدت أرحب بهذه الفكرة بادىء ذي بدء ، ولكني ما لبثت أن تذكرت وعدي للراهب ، فرفضت اقتراحه بشدة وأكدت له انني لن أختلي به بعد الآن .

فبان الامتعاض والشك في محياه ، وراح يمطرني بوابل من الأسئلة المحرجة ، وأخيراً قلت له :

ـ اسمع يا جينو.. اني احبك ، ومن أجل هذا قررت أن لا أسلمك جسدي إلا بعد أن يتم زواجنا .

ـ الآن أدركت الحقيقة .. فأنت تحشين ان لا أتزوجك ..

ـ انك مخطىء، فأنا واثقة من أنك ستفعل ولولا ذلك، لما قمت بالاستعدادات وأنفقت جميع ما كانت تدخره أمي من مال ..

فامتقع وجهه غيظاً حتى كدت لا أعرفه ، ثم تمتم قائلاً :

ـ ولما اذن هذه التدابير الجديدة ؟ !

ـ لقد اعترفت في الكنيسة ، وطلب إلى الكاهن ألا أستسلم اليك إلا بعد عقد زواجنا .

ـ وما دخل ذلك الكاهن حتى يحشر أنفه في حبنا وعلاقتنا ؟ !

ففضلت أن لا أجيبة ، وهنا اشتد هياجه وقال :

ـ أتريدين أن أعود بك إلى المدينة ؟

ـ إذا أردت ذلك فلا مانع عندي ..

ولقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيها جينو على حقيقته فيعاملني بفظاظة وقسوة لم أعهدها منه من قبل ! .

وعندما التقينا في اليوم التالي، بدا لطيفاً ومهذباً في حديثه وتصرفاته معي، تماماً كما عودني أن يكون في السابق ليوهمني أن الذي جرى أمس لم يسيء إلى علاقتنا ، وهكذا تتالت مواعيد لقائنا يومياً ، واستمرت على وتيرة واحدة ، تقتصر على الأحاديث العادية ، وكانت تنتهي بقبلة قصيرة .

وعلى مرور الأيام بدأ يتغيب عن الحضور ومتذرعاً بشتى الأعذار والأسباب، كما لاحظت أنه يظهر امتعاضه وعدم مبالاته في كل مرة أتحدث فيها عن مشاريع زواجنا ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن الشك لم يتطرق إلى قلبي بنواياه ، لأنه يعاملني بلطف ورقة .

وذات يوم صارحني انه لأسباب عائلية قرر تأجيل موعد زفافنا حتى نهاية الصيف ، ثم سألني بلهجة غامضة قائلاً :

– هل أقلقك هذا التأجيل ؟

فأجبته ، وأنا أنتزع الكلمات من شفتي انتزاعاً :

– كلا .. كلا ..

فأمسك بذراعي وقال :

– أنت تكذبين .. فملامح وجهك تنطق العكس .

فتظاهرت بالابتسام وقلت :

– يمكنني الانتظار ، ولا موجب للقلق !

فضغط على ذراعي بشدة وقال :

– إذا لم يقلقك التأجيل كما تزعمين فمعنى هذا أنك لا تحبينني وقد تكونين في قرارة نفسك غير راغبة في أن يتم زواجنا .

فصحت بنفاذ صبر قائلة :

ـ لا تقل ذلك ، لأن مثل هذه الأفكار لم تراودني مطلقاً ومع أن تأجيل موعد زواجنا لم يكن كافياً لإثارة شكوكي بصورة جلية ، إلا أنه قوي لدى حجة أمي وجيزالا .

وذات مساء بينما كنت أتناول عشائي ، وقد جلست أمي إلى جواري على المائدة ، أتيت على ذكر جينو في معرض الحـــديث ، فرأيت أمي تعتدل في جلستها وتقول :

ـ أتعلمين ماذا يطلقون على الفتاة التي تظل مخطوبة مدة طويلة ؟

فاكفهر وجهي ، وتأكدت أن العاصفة ستهب فسألتها متجاهلة :

ـ ماذا يسمونها ؟

ـ يدعونها فتاة على الرف .. فهو قد وضعك على الرف كشريحة من اللحم ، ولكن عندما يدب الفساد إلى اللحم يطرح خارجاً .

ـ ان ما تقولينه ليس صحيحاً ، فهو سيتزوجني في الموعد الذي حددناه ، ولكنك أنت تحقدين عليه لأنه سائق سيارة وليس شاباً غنياً .

ـ أنا لست حاقدة على أحد .

فصرخت في وجهها بنزق قائلة :

ـ بل انك تكرهينه ، خاصة لأنني أخذت منك ما ادخرته من مال لأنفقه على إصلاح الغرفة التي سنعيش فيها كزوجين .. ولكن لا تقلقي ، فهو سيعيد لك المبلغ بكامله ويسدد جميع الديون .

وبحركة لا شعورية تناولت حقيبة يدي وأخرجت منها ورقة الألف ليرة ، التي أخذتها من ستيفانو وأردفت قائلة :

– انظري .. هذا المبلغ منه ، وسيقدم لي مزيداً من المال فلا تقلقي .

ويبدو انها استاءت من عبارتي الجـــارحة فلم تنبس ببنت شفة بل رمقتني بنظرات يائسة وغادرت الغرفة ، وبعد برهة قصيرة شعرت بالندم الشديد على ما بدر مني من إساءة نحو أمي ، فلحقت بهـــا إلى المطبخ حيث ألقيتها تقوم بغسل الأطباق بهدوء ، فاندفعت نحوها واحتضنتها من الوراء قائلة بتوسل :

– سامحيني يا أماه على ما بدر مني !. سامحيني .

فلم تدر وجهها نحوي وخاطبتني بلهجة جافة :

– دعيني وحدي !

ثم راحت تحاول إزاحة ذراعي عن خصرها ، بينما قلت لها :

ولكن يجب أن تفهميني يا أماه .. لقد صممت على أن أقتل نفسي أو أن أصبح من الساقطات المتسكعات على الأرصفة ان هو لم يتزوجني .

وفي مساء أحد الأيام ذهبت لزيارة جيزالا في غرفتها ، فألفيتها تتزين أمام المرآة ، فبادرتني بقولها :

– لقد سهى عن بالي أن أعلمك أن ستيفانو استارينا يتحرق شوقاً للقاء بك ، وهو دائم السؤال عنك ، فهل تريدين أن أحدد لك موعداً للاجتماع به ؟ !

– لا تذكري استارينا أمامي .

– أظن أنك ما زلت حاقدة عليه لتصرفاته خلال رحلة فيتربو لقد كان معذوراً فهو يحبك .

ـ ولكنني قلت لك وأعيد القول بأني لا أريد اللقاء به !

فعادت تحاول إقناعي بشتى الأقوال والوعود قائلة :

ـ اقلعي عن هذا العناد فهو رجل لطيف المعشر وسخي وفوق ذلك يحبك، فلماذا لا تقابلينه في أحد المقاهي مثلاً ؟

ـ قلت لك لا أريد رؤيته .

ـ ولكن ستندمين على إصرارك .

* * *

الفصل الخامس

وذات مساء ..

ارتديت ملابسي وخرجت لزيارة صديقتي جيزالا ولكني لم أجدها في حجرتها ، فعدت بعد مضي ساعة من الزمن لأجد ستيفانو استارينا جالساً عندنا في البيت يتحدث إلى أمي وقد وضـــع قبعته على المنضدة القريبة منها ، فإذا بالدم يصعد إلى رأسي وانفجرت في وجهه غاضبة ، خاصة بعد أن أدركت أنه كان يحاول اغراء أمي ليكسبها الى صفه :

– ماذا جئت تفعل هنا ؟!

فرمقني بنظرات تائهة وقد تقلصت عضلات وجهه ، وفغر فاه ثم أطبقه دون أن يتلفظ بكلمة واحدة .

وكأن أمي أرادت انقاذ الموقف الحرج ، فالتفتت إلي قائلة :

– يقول هذا السيد انه يعرفك .. وأنه يريد الاطلاع على أحوالك الخاصة .

فأدركت من لهجتها أن ستيفانو قد تحدث اليها حديثاً طويلاً ، واستطاع كسب رضاها ، وربما يكون قد نفحها بعض المـال أيضاً ، وكان من الطبيعي تجرح هذه الحقيقة المؤلمة كبريائي ، فأمسكت بذراع أمي وقلت لها :

– أرجوك يا أماه أن تدعينا لوحدنا برهة من الزمن .

فذعرت من لهجتي القاسية ، وفضلت الانسحاب إلى المطبخ دون أن تنبس بحرف .

وهنا التفت الى ستيفانو وقلت له بلهجة خشنة :

ـ ماذا جئت تفعل هنـــا ؟.. اغرب عن وجهي .. لا أريد أن أراك .. أفاهم أنت ؟.

فتسمر في مكانه ، وراح يحملق في وجهي كالأبله وهو يحرك شفتيه محاولاً أن يتكلم ، ولكن النطق لم يسعفه .. وعدت إلى الصياح في وجهـــه بصوت مرتفع ، وقد بلغ بي الغضب أقصاه :

ـ هيا اذهب من وجهي وإلا استنجدت بالجيران ليقذفوا بك خارج البيت .

والآن أتساءل لمـاذا خانته الشجاعة في تلك اللحظة فظل مسمراً في مكانه لا يبدي ولا يعيد ، وكأنه أبكم قد فقد النطق ، في حين كان باستطاعته أن يهددني بجينو أو أن يستخدم نفوذه للانتقام مني وتحطيم كبريائي ، ولكنه لم يفعل ! وقد حصلت على جواب ذلك فيما بعد ، عندما تأكدت أن ستيفانو كان يهواني ويتمنى الاحتفاظ بي إلى قربه .

وأمام تهديدي بالاستنجاد بالجيران ، رأيته يتناول قبعته ويهم بالانصراف ، ولمـا وصل إلى الباب استدار إلي وعاد يحملق في وجهي محاولاً أن يتفوه ببعض الكلمات ، ولكن شجاعته خانته هذه المرة أيضاً فانفلت خارجاً بعد أن صفق الباب خلفه .

وأسرعت الى أمي أسألها :

ـ ماذا دار بينك وبينه من حديث ؟

ـ لا شيء ، سوى سؤاله عن العمل الذي أكسب عيشي من ورائه كما طلب إلي أن أخيط له بعض القمصان .

– اسمعي ، اذا اجتمعت به مرة ثانية فسأقتل نفسي .

– ومن قال انني سألتقي به مرة ثانية ؟

– أو لم يمنحك بعض المـال ؟

فأطرقت الى الأرض محاولة الانكار وقالت :

– كلا انه لم ينقدني سنتيماً واحداً !.

فأسرعت أضع يدي في جيب « مريلتها » فإذا بيدي تلامس ورقة نقدية ، وما ان أمسكتها حتى انتزعتها من يدي بجشع ظاهر وأخفتها في صدرها .. فقلت لها :

– لمـاذا تحاولين الإنكار ؟ !

قلت هذا ، ثم انسحبت إلى غرفتي قبل أن أتلقى جوابها ، مفضلة أن لا أجرح شعورها وأزيد في ازلالها .

في صبيحة اليوم التالي ، التقيت بجيزالا في الحانة المجاورة للمرسم ، ولم يكن بصحبتها ريكاردو ، فبادرتني على الفور :

– لدي مسألة هامة أريد إطلاعك عليها !

– اذا كانت خبراً سيئاً فأنا أرجوك أن لا تطلعيني عليه .

– انه ليس خبراً سيئاً كما تتوهمين ، كل ما في الأمر ان ستيفانو استارينا كلفني بإبلاغك أنه يرغب في مقابلتك في مقر عمله بالوزارة لأمر هام جداً يتعلق بك بصورة خاصة .

– حسناً لقد قررت أن ألبي دعوته .

– لا داعي للقلق ، ثقي انه لن ينالك بأذى .

ـ لقد صممت على مقابلته مهما كلف الأمر ، فأين مقر عمله ؟

ـ في مبنى وزارة الداخلية الواقع بمواجهة الأوبرا ، ويمكنك أن توافيه إلى هناك في أي ساعة شئت من قبل الظهر .

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة ، فقد استولى علي القلق وساورتني الهواجس والمخاوف من جراء هذه الزيارة ونتائجها ، وتبادر الى ذهني أن ستيفانو يريد استخدام منصبه في دوائر الأمن العام وإيهامي أن لديه معلومات ضد جينو تكفي للزج به في السجن .

وهكذا بقيت طوال الليل فريسة لمثل هذه الهواجس والأحلام المخيفة ، إلى أن طلع الفجر ، فغادرت فراشي وأنا على أسوأ حال .

وكان أول ما فعلته هو الاجتماع بجينو ، فلما قابلته بادرته بالسؤال :

ـ قل لي يا جينو ، هل تتدخل بالسياسة ؟

فحدجني بنظرة متسائلة وقال :

ـ السياسة ..؟ وماذا تعنين بذلك ؟

ـ اعني هل أنت ضد النظام القائم ؟

فزادت نظرته اتساعاً وقال :

ـ هل تظنين أني أحمق لدرجة العمل ضد الحكومة ؟!

فارتاحت أساريري لهذا الجواب وقلت :

ـ انني متأكدة من تعقلك ورجاحة عقلك ... ولكنني أحببت أن أتأكد ليطمئن قلبي !.

وحوالي الساعة الحادية عشرة ، صعدت الدرج العريض المؤدي إلى مكتب ستيفانو ، وبعد ان انتظرت نصف ساعة في غرفة مجاورة ، أدخلني الحاجب إلى

مكتبه ، فألقيته يجلس وراء مكتب فخم وقـــد انهمك في حديث هام مع مساعده ، والحق يقال أن نفسي بدأت تميل إلى تصديق ما كانت تقوله لي جيزالا عن ستيفانو ، وقد رأيت الآن بأم العين أنها لم تكن تخدعني ، عندما كانت تدعي بأنه شخصية لها وزنها ونفوذها .

وبعد دقائق معدودة صرف مساعده وراح يقلب بعض الأوراق المتراكمة أمامه والتي كان يتظاهر بقراءتها ... فبادرته بقولي :

– ها قد حضرت !

فأسرع نحوي ليتناول يدي ويقبلهابشغف وحرارة ، ثم بذل جهداً كبيراً حتى تلفظ بعبارة قصيرة قالها بتلعثم :

– لقد حضرت ..؟

– أجل لقد حضرت ، فماذا تريد مني ؟

– تعالي اجلسي إلى قربي على هذه الأريكة .

فلبيت دعوته ، وجلست إلى طرف الأريكة ، فما كان منه إلا أن مد ذراعه وحاول تطويق خصري ، فضقت ذرعاً بمداعباته وحاولت النهوض قائلة :

– لقد علمت أن لديك ما تقوله لي ، ولذلك جئت إلى مكتبك .

– ليس لدي ما أقوله لك سوى أنـــني أتمنى قربك ، وإني أعرض عليك أن نتفاهم .

– على ماذا تريد أن نتفاهم ؟

– انني احبك من صميم قلبي ، فلماذا لا تسكنين معي وتصبحين سيدة المنزل وكأنك زوجتي ، فأشتري لك الملابس الغالية والمجوهرات وكل ما تشتهين ؟

فسألته ببرودة :

– أمن أجل هذا رغبت في رؤيتي ؟

– أو لا يرضيك هذا العرض ؟

– أنا لا أريد حتى المناقشة فيه .

– الحقيقة أن هناك أموراً هامة يجب أن تطلعي عليها .

واتجه إلى مكتبه حيث تناول ملفاً أحمر اللون راح يقلبه بين يديه ، ومرت لحظات رهيبة كنت خلالهـــا فريسة القلق والاضطراب وازداد خفقان قلبي عندما رأيته يعود باتجاهي وذلـــك الملف الأحمر بين راحته ، فلم أطق صبراً فسألته :

– ما هذا ؟.

فأجابني بلهجة نفاذة :

– انها معلومات عن خطيبك .

– وما هي هذه المعلومات ؟.

فراح يقلب صفحات الملف بهدوء دون أن يلحظ اضطرابي وقال :

– جينو هولينارمي ... أليس هذا هو اسم خطيبك ؟

– بلى ...

– وقد قررتما الزواج في الشهر القادم .. أليس كذلك ؟

– نعم .

ولكن جينو موليناري متزوج من فتاة تدعى انطونيتا بارنيني ، ابنة اميليو بارنيني ، وذلك منذ أربع سنوات ، وقـــد أنجبت له فتاة تدعى ماريا .. والزوجة تسكن في الوقت الحاضر مع أمها في بلدة أورفيتو .

نزلت هذه الكلمات كضربات السياط اللاذعة ، وقد حاولت أن أصرخ من

شدة الألم ، ولكني لم أستطع النطق ، وبحركة لا شعورية غادرت مكتب ستيفانو وأنا على أسوأ حال ، وتركته واقفـــاً في وسط الغرفة والملف بين يديه .. ولم أشعر بنفسي إلا وأنا تائهة في شوارع المدينة في زحمة الناس وبين ضجيج السيارات المنطلقة بجنون .

كنت كالمصابة بالذهول ، لا أرى إلا تلك النقطة السوداء .. خيانة جينو ، فرحت أستعرض موقفي منذ الساعة التي التقيت بها بهذا الشاب إلى أن خرجت من كل ذلك بعذر مقبول يبرر خيانته لي وخداعه ، فمما لا شك فيه أنه تأثر بجمالي الساحر لدرجة دفعته لامتلاكي وكسب قلبي ، وقد نجح .. أنه كان ضعيفاً ولم يكن شريراً ، والذنب يعود لفتنتي الطاغية التي خلبت لبه وسلبته إرادته ، كما اتضح لي أن جينو وستيفانو متساويان في نظري ، فالأول قد لجأ الى الكذب والثاني الى التهديد ، وكلاهما كان يسعى لكسب قلبي بوسائله الخاصة !.

وعدت إلى منزلي .. وارتميت فوق فراشي وسبحت في سبات عميق .

وبعد ثلاث ساعات فتحت عيني على صوت أمي تدعوني لتناول العشاء ، فأجبتها بأني لست جائعة ، ثم رجوتهـــا أن تساعدني على خلع ثيابي ففعلت ، وقبل أن تنصرف من حجرتي قلت لها بلهجة جدية لم تعتد سماعها مني :

– لن أنهض باكراً في الغد لأنني قررت أن لا أعمل نموذجاً بعد اليوم .

فسألتني بلهفة واستغراب .

– ولكن ماذا قررت أن تعملي لتتمكن من كسب عيشنا ؟

– لا تقلقي يا أماه .. لن أعدم وسيلة للحصول على المال .

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي ، كان قد قر قراري على الانقطاع عن جينو كل صباح حتى تزول الآلام النفسية التي خلفتها لي الصدمة الأخيرة .

وبعد أن تناولت شيئاً من الطعام ، عدت فاستلقيت على سريري من جديد ،

وكانت أمي قد غادرت البيت لشراء بعض الحاجيات فانتهزتها فرصة مواتية كي أطلق لأفكاري العنان ، وأحزم أمري على خطة جديدة للمستقبل ، وبعد أن قلبت الأمر على جميع وجوهه ، قررت أن أكون واقعية مـــع نفسي من الآن فصاعداً ، وأن أقتدي بصديقتي جيزالا وأجاريها في مغامراتها الغرامية ، فأحصل من وراء ذلك على المتعتين معاً: المال ، واللذة الجنسية ! ورحت أحدث نفسي لأقنعها بصواب هذه الفكرة ، فجمالي الطاغي كفيل بتوفير ما أنشده من المـال والملابس والملذات ، فلماذا لا أستفيد من فتنتي وشبابي فأنغمس في هذه الحياة الصاخبة ؟! ثم لقد جربت حياة الشرف والكرامة ، فلم تعد علي بغير الوبال والفقر الدائم .

واستهوتني هذه الفكرة، وشعرت بالارتياح لها ، فنهضت من سريري أتجرد من ثيابي وملابسي الداخلية لأقف عارية أمام المرآة أتفحص جسدي البديع ومفاتنني وأنا أحـــدث نفسي بأن أمي كانت على حق عندما صرخت في وجه الفنان قائلة .

– انظر إلى هـــذا الجسد المتناسق المتجانس .. وإلى هذا الصدر العامر الرجراج ، والبطن الضامر ، وإلى هـــذين الفخذين المنسكبين كعامودين من الرخام !.

كما عذرت ستيفانو لتفانيه في امتلاكي والتحرق شوقاً للتمتع بهذه المفاتن المتفجرة حيوية وفتنة .

وبعد أن قضيت ساعة من الزمن أمام المرآة ارتديت ملابسي وقصدت حانة قريبة من المنزل حيث تحدثت إلى جينو بالتليفون وقلت له بأعصاب هادئة ، وكأنني لم أطلع على خيانته وخداعه :

– ما رأيك في خلوة ممتعة في قصر سيدتك تكون مثيلة لخلوتنا الأولى ؟

– ولكن سيدتي لن تغادر قصرها إلا بعد مضي عشرة أيام ، ولماذا لا نلتقي غداً في مكان آخر ؟ لقد ظننتك مريضة لأني لم ألتق بك في الصباح .

– انني في تمام الصحة والعافية ، وإلى اللقاء بعد عشرة أيام ، عندما يخلو القصر من سيدتك .

– ولماذا بعد عشرة أيام ؟ هل بدر مني ما يسيء اليك حتى تؤجلي لقاءنا كل هذه المدة ؟

– كلا .. لو كنت مستاءة منك لما اتصلت بك ، إنما هنالك بعض الأعمال الطارئة التي تحول دون لقائنا كما كنا نلتقي في السابق .

– وهل ستحول هذه الأعمال دون التقائنا كالمعتاد كل صباح أيضاً :

– أجل .. لأنني سأكون في هذا الوقت منهمكة بمساعدة أمي في أعمال الخياطة نظراً لاقتراب العيد ، وبالمناسبة لقد سهى عن بالي أن أعلمك بأنني قد تركت عملي في المرسم ... والآن أستودعك الله .

وهكذا أنهيت المحـــادثة ، ثم رحت أهنيء نفسي على هدوء أعصابي ولهجتي الطبيعية .

وفي مساء ذلك اليوم ذهبت لزيارة صديقتي جيزالا في غرفتها فألفيتها ترتدي ثيابها أمام المرآة استعداداً للذهاب إلى موعدها اليومي مع صديقها ريكاردو ، وبكل هدوء وبرود أعصاب رحت أروي لها تفاصيل زيارتي لستيفانو في مكتبه والمعلومات الخطيرة التي زودني بها عن زواج جينو ، وما كادت جيزالا تعي ما قلته حتى استدارت إلي ، وراحت تحملق في وجهي بذهول ثم قالت :

– أكاد لا أصدق .. فهل تأكدت من صحة هذه المعلومات ؟

ـ أنا أجزم بأن ما أعلنه ستيفانو حقيقة واقعة لأنه استقاها من مصادر رسمية بحكم منصبه في دائرة الأمن العام .

ـ يا إلهي ما أصلب إرادتك ، أو لم تصدمك هذه الأخبار المرعبة ؟

ـ طبعاً صدمتني .

ـ أو لم تذرفي الدموع السخينة لهذه المصيبة التي نزلت بك ؟!

ـ كلا ، أنا لم أذرف دمعة واحدة .

ـ ان لك قلباً قدّ من الحجر الصلد .

ـ ولكن ما عساي أن أفعل ؟ أتريدين مني أن أنتحب وأمزق ثيابي لأن جينو لم يتزوجني ؟

ـ ولكنه وغد حقير ، لقد غرر بك لينال بغيته .. انه لا يستحق حبك وإخلاصك .. ان الرجال كلهم أوغاد مخادعون : لو كنت مكانك لذهبت اليه وصارحته بأنني أكرهه وأحتقره وأفهمته انه وغد حقير .

ـ لقد اتصلت به تليفونياً واتفقنا على اللقاء بعد عشرة أيام ، وهذا الموعد سيكون مغامرة جديدة نبدأها كعشيقين ..

فاقتربت مني تشدني من كتفي قائلة :

ـ حقاً انك فتـــاة حمقاء جاهلة ، فأنت لا زلت تحبينه رغم كل ما أنزله بك من أذى .

ـ انني لم أعد أحبه كما يتبادر إلى ذهنك .

ـ لمـاذا تجرين خلفه ما دمت لا تحبينه ؟ اهجريه فهو صعلوك سافل يستحق القتل ، لقد أنفقت بسببه كل ما كنت تدخرينه من مال .

ومالت علي تطوق عنقي بذراعيها وتقبلني محاولة أن تسري عني ، ثم أردفت تقول :

ـ لا تقلقي من أجل المال الذي ذهب هدراً ، ان ستيفانو لا زال يحبك حباً صادقاً وبإمكانه ان يعوضك أضعاف ما أنفقت .

فأزحت ذراعيها عني بشيء من الحدة وقلت :

ـ لا أريد رؤية ستيفانو لأنه يذكرني بآلامي الماضية .

ـ هل تريدين ان تتعرفي على رجل آخر يبذل لك المال والمساعدة ؟

أجبتها بشيء من الحرج والتردد :

ـ نعم . . .

ـ دعي هذا الأمر لي .

ـ ولكنني لا أريد ان ارتبط بأي رجـــل ، وأنا افضل ان ابقى طليقة من كل قيد .

فعادت تردد عبارتها الأولى ودلائل العزم بادية على وجهها .

وقد شعرت آنذاك بميل شديد نحو جيزالا نظراً لما أبدته نحوي من اهتمام زائد في تحقيق خطتي التي رسمتها ، مع ان تفانيها في مساعدتي لم يكن مصدره الصداقة المطلقة ، بل كان بدافع آخر مستمد من أنانيتها وطمعها ، فهي تريدني ان انزل إلى مستواها أولاً ، وأن تكسب بعض المال عن طريقي ثانياً .

وهكذا افترقنا في الشارع بعد أن تواعدنا على اللقـــاء مساء غد في المقهى القريب من مسكنها .

في مساء اليوم التالي ، ادعيت انني ذاهبة لمقابلة جينو ، ولذلك ارتديت

ثوباً جديداً كنت احتفظ به ليوم زواجنا ، ثم تأنقت في زينتي ، خاصة وقد قيل لي ان الرجال تخدعهم المظاهر الخارجية وغادرت البيت في طريقي الى المقهى ، وكان من المقاهي الفخمة ، رواده من الطبقة الراقية وكبار التجار ، وبعد تردد طويل أمام الباب المضاء بالأنوار الكهربائية ، ولجت إلى الداخل وأنا أتعثر بخطاي ، ثم رحت اجيل الطرف في أرجـــاء القاعة الفسيحة المكتظة بالنساء والرجال وقد انتابتني رجفة ، بالإضافة الى شعور خفي جعل قلبي يخفق بشدة لم أدرك كنهه في تلك اللحظة ، ويقيني أن هذا الشعور هو نفس الشعور الذي يحسه المرء عندما يهم بارتكاب أمر مخالف للسنن البشرية .

ومن احدى الزوايا المظلمة ، وقفت أبحث عن جـــيزالا بنظرات شاردة وأعصاب مضطربة إلى ان وقع نظري عليها أخيراً جالسة في طرف القاعة بجوار رجل في العقد الرابع من العمر قصير القامة مورد الخدين ، علمت فيما بعد انه من تجار ميلانو الأثرياء ، وقد قدمته لي باسم جوليو .

وبيد مرتعشة صافحت الرجل ، بينما كان عرق الخجل يتصبب من جبيني ، ثم ارتميت على مقعد قريب منه محاولة السيطرة على أعصابي ، وبعد حين رحت أختلس اليه النظر بين الفينة والفينة ، فلاحظت انه لم يعرني اهتمامه ، بل قضى معظم وقته يثرثر في حديث ممل مع جيزالا ، وقد فهمت من هذا الحديث أنه كان عشيقها في وقت من الأوقات ، وراح يتباهى أمامي بالهدايا التي قدمها لها في الماضي ، عندما كان يحضر إلى روما ، كما علمت أنه رجل مجرب يهوى معاشرة النساء رغبة في اشباع شهواته المتدفقة .

وعندما قاربت الساعة الثامنة مساء نهض من مقعده قائلاً :

ـ لقد حان وقت العشاء فهيا بنا .

وغادرنا المقهى بعد أن نقد الخادم ثمن المشروب ، وعندما أصبحنا في الشارع

دعا جيزالا لتناول طعام العشاء معنـــا ، فاعتذرت لارتباطها بموعد آخر ثم افترقت عنا .

وهكذا سرنا جنباً إلى جنب حتى باب المطعم الذي اختاره ، فدخل قبلي واتجه تواً الى مائدة معينة تقع بجوار نافذة تطل على المدينة ، أعتقد انه اعتاد أن يتناول طعامه عليها ، وما ان جلسنا متجاورين حتى بادرني بقوله :

– هل لك قابلية جيدة للأكل ؟

فأجبته بشيء من الحرج :

– اعتقد ذلك ..

– يسرني أن أسمع ذلك لأنني أحب الناس الذين يأكلون جيداً ، فجيزالا مثلاً ليست من محبي الأكل خوفاً من السمنة والترهل .

– ان كثيرات من الفتيات والنساء يتناولن وجبات قليلة من الأطعمة خوفاً من السمنة !.

– وهل أنت من هذا النوع ؟

– كلا .. ولهذا السبب يعتبرونني من فئة الوزن الثقيل .

– لا تصغي اليهن .. انك تبدين جميلة وصحيحة الجسم .

وفي هذه الأثناء حضر الخادم يحمل أطباق الطعام الشهي ، فانهمك كل منا في الأكل ، وقد لاحظت أن له قابلية جيدة جداً فقد انغمس بكليته في طبقه وراح يلتهم الطعام بنهم زائد دون أن يعيرني اهتمامه وكأنه يجلس وحده على المائدة ، وكان لا يتوقف عن المضغ إلا ليحتسي جرعة كبيرة من النبيذ ؛ ثم يعاود الأكل بنفس الشراهة ، وبعد أن انتهى من طعـــامه راح يلعق شفتيه ويمتصها بشكل أثار اشمئزازي .. فرحت أحدث نفسي وأسائلها كيف يمكنني

أن اسلم جسدي وملء اختياري لرجل أقابله لأول مرة دون ان يثير فيّ أي شعور بالعاطفة ، مع انه لم يكن قبيحاً ، ولكنني لم أجد في صفاته وتصرفاته شيئاً يحملني على الإعجاب به .

وكأن لسانه يأبى عليه أن يظل بلا حركة ، إذ انه ما كاد ينتهي من ازدراد آخر لقمة ، حتى راح يثرثر بأحاديث تافهة عن مغامراته الغرامية مع الفتيات وعن الأموال التي انفقها ليظفر بهن ... ثم سألني :

ـ ما بالك شاردة الفكر؟ اسمعي أنا لا أريد الاطلاع على همومك وأحزانك لأن لدي من المشاكل ما يكفيني .. ولكن ثقي انني سأمنحك مبلغاً من المال مقابل قضاء ليلة ممتعة معك .

ـ انني أكاد أختنق في هذا الجو المشبع برائحة الدخان وأنفاس المخمورين..

ـ اذن .. هيا بنا لنخرج ..

ـ هل نذهب إلى الفندق ؟

ـ كلا .. تعال معي إلى غرفتي ..

وحملتنا أول سيـــارة تاكسي صادفناها في الطريق إلى المنزل ، وعلى عتبة الباب الخارجي رجوته أن لا يحدث ضجة قائلة :

ـ انني اسكن مع أمي ، ولا أريدها أن تستيقظ .

ـ لا تقلقي يا صغيرتي .

وبعد أن فتحت الباب ، أمسكته بيده وسرت به في الظلام الدامس إلى أن أدخلته حجرتي ، وبعد أن أصبحنا في الداخل ، أغلقت بابها ، ثم أضأت النور ، فإذا به يجيل النظر في أرجاء الغرفة النظيفة وأثاثها الجديد ، فارتاحت أساريره ، وبينما كان يخلع ثيابه خرجت من الغرفة لأجد أمي ما زالت تعمل في غرفتها ،

فأجفلت لظهوري المفاجيء وفغرت فاها تريد أن تقول شيئاً ، ولكنني بادرتها بلهجة حازمة بقولي :

ـ لقد اصطحبت معي رجلاً .. انه في حجرتي .. فأرجوك أن لا تزعجينا .

فأجابتني وقد عقدت الدهشة لسانها :

ـ رجل في غرفتك ؟ يا إلهي !..

ـ أجل رجل .. ولكنه ليس جينو على أي حال ..

وقبل أن تمطرني بأسئلتهـــا الحرجة أسرعت عائدة إلى حجرتي ، حيث استقبلني جوليو بصبر نافذ ، وتلقاني بين ذراعيه محاولاً تقبيلي ، ولكنني زغت منه ولم أمكنه من ذلك ، فاكتفى بأن غمر صـــدري وعنقي وفخذي بقبلاته النهمة النارية ثم راح يمارس معي شتى أنواع المداعبات السمجة التي لم أستسغها ، ومع ذلك احتملته على مضض ، وأنا أرقب النهاية بفارغ الصبر ..

. . . . . .

وأخيراً انطرح الى جواري بعد أن أنهكه التعب مبدياً رغبته في النوم بعض الوقت ، وهكذا التف بالغطاء ، ولم تمض برهة قصيرة حتى راح في سبات عميق وصوت شخيره يلعلع في فضاء الغرفة بشكل أثار حنقي وغيظي ، فلم اشعر إلا ودموعي تنهمر على خدي .

وبعد مضي ما يقارب النصف ساعة أفاق من غفوته وسألني :

ـ هل قضيت مدة طويلة نائماً ؟..

ـ أجبته . . لا .

ـ لا بأس فأنا أشعر براحة تامة و كأني نمت الليل كله .

ثم ما لبث أن نهض من السرير وراح يرتدي ثيابه ، وعندما انتهى وأراد الخروج التفت إلي قائلاً :

ـ كم تريدين ؟

ـ ادفع ما شئت .. انني بحاجة إلى المال ، وكلما كان المبلغ كبيراً كان معروفك معي جزيلاً ..

ـ سأمنحك مبلغاً محترماً ليس لأنني أريد أن أعمل عملاً طيباً ، بل لأنك هيأت لي متعة تستحقين من أجلها هذا المبلغ .

وكما قالت جيزالا ، كان الرجل سخياً معي فمنحني مبلغـــاً لم أكن أتوقع الحصول عليه ، ولكنني لم أكد اطبق اصابعي على الورقة المـالية حتى تبادرت إلى مخيلتي فكرة طارئة .. هي اني اصبحت منذ هذه اللحظة امتهن مهنة وضيعة ؛ وإنني بعبارة أوضح قد أصبحت .. مومساً !..

وفي الظلام قدت الرجل نحو الباب الخارجي ، ثم عدت إلى حجرتي بعد ان ودعته ، فإذا امي تقف لي في الباب وهي ترمقني بنظرات غامضة .. ومهما يكن من أمر ، فالمهم انها لم تمسك بشعري ، ولم تنهل علي بالضرب ، كما كانت تفعل في السابق ، وقبل أن تفتح فمهـــا بالكلام كنت قد دسست في يدها ما أخذته من الرجل لأكسب سكوتها بالمـال ، فما كان منها إلا أن قذفت بالورقة المالية الى الأرض وانسحبت إلى حجرتها وتركتني في دهشة تتنازعني شتى الانفعالات النفسية .

وبعد ليلة ليلاء لم يغمض لي فيهـــا جفن ، نهضت صباحاً من فراشي وهرولت الى حجرة أمي ، فإذا بها جالسة في مقعدها تخيط بعض القمصان ، وقد بدت مكفهرة الوجه ساهمة ، ولما وجدت انها لم تكترث لدخولي قلت لها:

ـ أراك متجهمة الوجه فما بالك يا أماه ؟!

فأجابتني بصوت خشن دون ان ترفع رأسها قائلة :

ـ لقد شعرت بوحشة قاتلة ليـــلة أمس ، وتمنيت الموت لأنجو من آلامي النفسية ، لقد كان لي ابنة تدعى ادريانا .. ولكنني فقدتها ، نعم لقد فقدتها ليلة امس بغمضة عين .. يا إلهي ما أقسى القدر علينا نحن الفقراء المساكين !

كانت كلماتها تنزل علي قاسية وكأنها لسعات سياط قوية تنهال على جسدي وانهمرت الدموع من عيني بغزارة وقلت لها :

ـ وماذا دهاك حتى تتمني الموت ؟!

فتظاهرت بأنها لم تسمع عبارتي وتابعت حديثها بصوت متهدج ينطوي على تأنيب عنيف لمـــا اقدمت عليه ليلة امس دون استشارتها ، وفجأة انفجرت بالبكاء بصوت مرتفع ، حتى راحت شفتاها ترتجفان من شدة الانفعال ، فأسرعت أطوق عنقها بذراعي وأنا اواسيها وأخفف عنها ، وبقينا على هذه الحالة مدة من الزمن لم انفك خلالها عن التوسل اليها كي تكف عن البكاء الى ان التفتت إلي قائلة :

ـ اسمعي يا ادريانا .. لا اريدك ان تنزلقي الى الحضيض من اجل كسب عيشنا .. وأنا اعني ما أقول !

وكدت اذكرها بأقوالها الماضية عندما كانت تصفني بالجهل والحمق لأنني رفضت ان اقتدي بجيزالا فأستغل جمالي ، ولكنني آثرت ان لا اجرح عاطفتها ، فتركتها توجه إلي النصائح وأنا مقتنعة بأنها لا تعني ما تقول .

* * *

يبدو ان جوليو قد استهواه جمـــالي ، وسحرته فتنتي ، فقد كرر لياليه في مخدعي بضعة أيام متتالية إلى ان غادر روما عائداً الى مقر عمله في ميلانو ، وقد كان ذلك قبل موعدي مع جينو بيوم واحد .

ومع انني انزلقت في هذه الطريق المليئة بالأوحال والأشواك والمخازي ، إلا انني لم أنزع من رأسي فكرة الزواج والعيش في كنف زوج شاب أحبه ، يبادلني الحب بصدق وإخلاص ، ذلك لأنني ، والحق يقال ، لم اجد في حياة الفجور ما يستهويني .. رغم ان جوليو قد حرص في زياراته التالية على منحي نفس المبلغ الذي نفحني اياه في المرة الأولى ، وكنت أضع الجزء الأكبر منه في خزانة أمي دون ان اقول لها شيئاً ، وقد كان من الطبيعي أن تلاحظ تضخم المبالغ فتدرك مصدره ، ولكنها لم تشر الى هذه الناحية بكلمة واحدة ، كما اني لم احاول الإشارة الى ذلك بدوري لأن من يحترف هذه المهنة الوضيعة يحرص أشد الحرص على عدم الإشارة اليها ، ليس للغرباء عنه فحسب ، بل إلى الأصدقاء وأقرب الناس .

وأخيراً جاء اليوم الذي كنت قد حددته للقاء جينو ، فأحسست بدافع خفي يدفعني اليه ، فتأكدت من انني ما زلت أحتفظ له في سويداء قلبي ببعض الحب والعطف الخاص ، وما أن جلست إلى قربه في السيارة ، وانطلقت بنا إلى قصر سيدته ، حتى بادرني بلهجة ساخرة قائلاً :

ـ هل قضيت هذه المدة الطويلة وأنت تساعدين امك في أعمالها حقاً ؟

ـ أجل .

ـ هل تظنين اني احمق حتى اصدق ان عملك يمنعك من الاتصال بي ولو لبضع دقائق ؟!

فطوقت عنقه بذراعي ورحت اقبله وأنا أهمس في اذنه :

ـ لا موجب للغيرة ، انت الشخص الوحيد الذي أحب ..

وفي تلك اللحظة كانت السيارة قد وصلت بنا إلى القصر ، ولما ولجنا الباب الرئيسي بادرته :

ـ أنا لا اريد ان اذهب الى حجرتك .

ـ ولـماذا ؟

ـ اريد ان استمتع بك في حجرة سيدتك هذه المرة .

ـ هل فقدت عقلك ؟ ان ما تطلبينه مستحيل .

ـ إذا كنت تحبني حقاً يجب ان لا تتردد .

ـ إنني احبك ، ولكن طلبك يوقعني في المشاكل ، لذلك لا يسعني إجابته .

ـ هل نسيت إنني خطيبتك ؟ وإنني افوق سيدتك جمالاً وفتنة وإني استحق أن امتع نفسي في السرير الفخم الذي ترقد عليه .

ـ كلا يا عزيزتي انا لم انس .

ـ لماذا تستكثر علي هـــذه المنة إذن ؟ . أنا عائدة إلى منزلي لأنك خيبت رجائي .

وتظاهرت فعلاً بالغضب الشديد ، وهممت بمغـــادرة باب القصر ، إلا انه أسرع يمسك بذراعي قائلاً بتوسل :

ـ مهلاً .. إلى أين أنت ذاهبة أيتها الحمقاء ؟ هل ظننت حقاً اني ارفض لك مطلباً ... هلمي بنا .

ـ الى اين ؟ .

ـ الى حيث اجيب طلبك .. الى حجرة سيدتي .

فأبديت شيئاً من الممانعة ، ثم عدت فرافقته بفنج ودلال الى الطابق العلوي حيث حجرة سيدته ،وهناك رحت أعد السرير فإذا به يعود إلى الاحتجاج قائلاً :

ـ ماذا تفعلين ؟!

ـ اني أعد السرير كما ترى ..

ـ هناك اريكة مريحة يمكننا استعمالها ..

فلم أعبأ به وباحتجاجه بل تابعت عملي في ترتيب السرير فقال :

ـ ولكني لا أفهم لماذا تصرين على استخدام السرير ؟!

ولكني لم أرد عليه ، بل دخلت إلى غرفة الحمام فلحق بي قائلاً :

ـ ماذا تريدين ؟!

ـ تحضير الحمام ..

فصرخ في وجهي بنفاذ صبر :

ـ يا إلهي .. أو تريدين ان تأخذي حماماً ايضاً ؟!

ـ أجل .. اني أعشق الاستحمام، لذلك سآخذ حماماً ساخناً بعد أن ننتهي .

عبارة قلتها وانتظرت نتيجة وقعها ، ولكنني لم اسمع من جينو أي تعليق عليها ، فالتفت اليه فإذا وجهه مكفهر من شدة القلق والاضطراب ، مما أكد عندي اعتقادي بأن الجرأة تنقصه وأنه يخشى سيدته لدرجة لم أتصورها في رجل .

وبعد ان أعددت كل شيء بهدوء وبرود اعصاب ، سحبته من يده الى سرير سيدته لنغرق في عمرة من الشهوات المتدفقة .

وعندما انتهينا ، وبينما كان يرتدي ثيابه ، رحت اراقبه بإمعان ثم قلت له بصوت هادىء :

ـ لقد علمت أنك متزوج من امرأة تدعى أنطونيتا بارتيني .

فإذا به ينتفض كأن سلكاً كهربائياً قـــد مسّه ، ثم استدار إلي قائلا بصوت مبحوح :

ـ ماذا تقولين ؟ !

ـ وأن لك منها ابنة تدعى ماريا .. أليس كذلك ؟!

وخانته الألفاظ هـــذه المرة فلم ينطق بكلمة واحدة ، بل ظل مسمراً في مكانه يحدجني بنظرات تائهة ، وقد عقدت الدهشة لسانه فعدت إلى القول :

ـ مسكين أنت يا جينو ... لمـاذا حاولت خداعي والكذب علي ؟ .

ويبدو أن عبارتي الأخيرة قد شجعته وأعادت إلى نفسه بعض الاطمئنان فقال بصوت متهدج :

ـ لأنني أحبك يا ادريانا !

ـ كان عليك أن لا تلجأ إلى الكذب ، لو انك كنت تحبني حقيقة .

ولقد أحببتك من صميم فؤادي ، وقد اضاع حبك صوابي ، فقاطعته قائلة :

ـ هذا يكفي .. لا داعي لإطالة العتاب ... دعنا نتناسى آلام المـــاضي ولنعش لغدنا كما يحلو لنا .

فاندفع يطوقني بذراعيه بشدة ويشبعني لثماً ، مظهراً شكره وامتنانه لتسامحي ، فتركته يفعل ما يشاء برهة ، ثم أسرعت الى الحمـــام لأستحم بالماء الساخن .

وبعد ان انتهيت من الاغتسال ، رحت أرتدي ثيابي في الغرفة الصغيرة المجاورة لغرفة الحمام ، وقد كان هنالك خزانة جميلة فتحتها بدافع الفضول ، وإذ بيدي تتعثر بعلبة للمساحيق مصنوعة من الذهب الخالص ، فحدثتني نفسي الامارة بالسوء ان أستولي عليها ، وبحركة لا شعورية كانت العلبة قد أصبحت في حقيبة يدي .. وهكذا أصبحت ، بالإضافة إلى ما أنا عليه .. سارقة أيضاً .

وتتابعت الأيام على وتيرة واحدة .. ألتقي في كل ليلة برجل غريب أجالسه بعض الوقت ، ونحتسي عدداً من أقداح الشراب ، لننتهي أخيراً الى حجرتي ، تلك الحجرة التي كتب عليها ان تشاهد خليطاً عجيباً من الرجال ، كما ان جوليو عاد إلى روما مجدداً ، وقد حمل إلي زوجين من الجوارب الحريرية كهدية ، وفي

الأيام القليلة التي قضاها في روما لم أنقطع عن لقياه ، أما أثناء غيابه فإن ليالي كانت موزعة بين جينو من جهة وغيره ممن أصادفه في عرض الطريق وفي زوايا الحانات من الرجال طلاب المتعة العابرة ، حتى أصدقاء جيزالا نفسها لم يستطيعوا الإفلات من شبـــاكي ، وإذا استعرضنا كل هؤلاء وجدنا أن بينهم الشباب ، ومتوسطي الأعمار ، والمسنين ، وكان بينهم من عاملني برقة ولطف ، بينما كان غيرهم فظاً قاسياً في معاملتي وكأنني قطعة حية تباع وتشرى عليها أن تقدم له نفسها لإشباع شهوته وأن عليه هو أن يطرحها جانباً وبازدراء متى انتهى منها.. وكنت احتمل تصرفات الجميع نحوي ، سواء كانت حسنة أم سيئة .

ومن وقت لآخر كان ينتابني تعب شديد من جراء تسكعي في الشوارع والملاهي الليلية بحثاً عن الصيد ، فألجأ الى حجرتي بضعة أيام طلباً للراحة ، غير ان رؤية المال يكاد معينه ينضب من الخزانة كان يدفعني للخروج في الليالي المظلمة الباردة بحثاً عن أي رجل يزيد رصيدنا بضعة دريهمات ، لأن المال الذي كنت أحصل عليه لم يكن كثيراً ، أولاً لأنني كنت أخجل من المساومة والمناقشة بوقاحة كما كانت تفعل جيزالا مع عشاقها ، وثانياً لأنني كنت أعتبر أن المال الذي كان يقدم لي هو بمثابة هدية وليس كأجر ، فإذا كان عشيق الليلة سخياً شكرته على كرمه ، اما إذا منحني مبلغاً زهيداً فإني أتقبله دون أن أجرؤ على مناقشته .

وقد قررت فيما بعد أن أقتدي بجيزالا فأساوم العشيق سلفاً على معين ، ولكنني وجدت صعوبة كلية في بادىء الأمر ، وكدت أن أقلع عن هذه الطريقة ، إلا أني لم ألبث ان اعتدتها حتى صارت جزءاً من مهمتي ، نظراً لحاجتي الى المال الذي كنت أنفق الجزء الكبير منه في شراء أدوات الزينة والروائح وبعض الثياب الضرورية .

وعلى مرور الزمن بدأت اشعر ان حبي لجينو قد تضاءل كثيراً ، وأصبح

لا يختلف بنظري عن سائر الرجال الذين كنت استسلم اليهم ، أضف الى ذلك الخبرة الواسعة التي اكتسبتها من هذه المغامرات المستمرة ، بحيث صرت ملمة ، بأطباع الرجال وبأساليبهم المختلفة في إشبـــاع شهواتهم الجسدية ، ووسائلهم المتعددة في معاملة المرأة ، خاصة عندما تكون مثلي من بائعات الهوى ، فأعجبت مثلاً بالفتيان الممتلئين صحة ونشاطاً ، الحديثي العهد في أساليب الحب لأن غرائزهم الجنسية تكون دائماً مشبوبة ، وعواطفهم جياشة ، شديدة العنف يمكن اثارتها لأول مداعبة ، كما أحببت الرجال الأقوياء ، عريضي المناكب ، والذي لفت نظري ان المسنين من الرجال يتمتعون بمقدرة على ممارسة الحب ، غير متوفرة عند المرأة التي تكون في مثل مستواهم من العمر .

وخلال هـــذه الحقبة من الزمن كنت قد طلبت الى أمي أن تقلع عن عمل الخياطة ، وأشغال الإبرة المضنية للجسم والعينين ، وكانت هي بدورها قد رحبت بالفكرة ، وسرعان ما ركنت الى حياة الخمول والدعة ، حتى صارت علائم السمنة والترهل تظهر عليها .

وحدث ذات صباح أن استفقت على صوتهـــا الخشن ينبهني الى حضور جينو قائلة :

– لقد حضر جينو ، انه في الردهة وهو يريد مقابلتك حالاً .

– ادخليه إلى هنا .

وبعد لحظات رأيته يدخل إلى حجرتي ودلائل الانفعال ترتسم على قسمات وجهه بوضوح ، ثم اقترب من السرير حيث كنت مستلقية وقال :

– لقد فقدت سيدتي علبة المساحيق مصنوعة من الذهب ، وبما انني كنت مسؤولاً عن القصر أثناء غيابها فإنها قد اشتبهت بي .. كما انها اشتبهت بكل خدم القصر .. ومن حسن الحظ انهـــا لم تتفقدها إلا أمس ، ولولا ذلك لكان مصيري السجن .

فسألته بصوت هادىء دون أن أتحرك من سريري :

ـ وماذا فعلت بالخدم ؟

ـ لقد تولى أحد رجال الشرطة استجوابهم ، كما استجوبني .

فترددت لحظة ثم قلت بهدوء :

ـ لا تقلق بالك من هذه الناحية ، أنا أخذتها !.

فحملق بوجهي مذهولاً وقد انقبضت أسارير وجهه ثم راح يردد :

ـ أنت أخذتها اذن ، ولمـــاذا لم تطلعيني على ذلك ؟ أتعلمين ان عملك هذا يعتبر سرقة ؟!

ـ أعلم ذلك جيداً .

فانفجر غاضباً لوقاحتي وعدم مبالاتي وقال :

ـ الآن أدركت سبب اصرارك على زيارة حجرة نوم السيدة ، ولكنني لست مضطراً لتحمل نتائج عملك المشين هذا ، وإذا كنت تريدين السرقة فقد كان عليك أن تجربي حظك في مكان غير القصر الذي أعمل فيه ، ما أغباني لو تزوجتك ، لكنت أصبحت زوجاً لامرأة سارقة ، أين العلبة ؟

كان يتكلم بانفعال وبصوت خشن ، وكنت أراقبه بدقة وهدوء ، حتى إذا انتهى من كلامه قلت له :

ـ كل هـــذا الانفعال من أجل علبة مساحيق ؟. لا بد أن سيدتك تملك العشرات مثلها .. ثم انها لم تتهمك بسرقتها مباشرة ، ومن المحقق أنها ستنسى المسألة غداً ،

ـ ولكن لماذا سرقتها ؟.

– لأجرب قدرتي على السرقة عندما تقودني الحاجة ... انني أتسكع في الشوارع تحت جنح الظلام كل ليـــلة لألتقط طلاب المتعة العابرة من الرجال فأقودهم إلى هنا حيث أقوم بإشباع شهواتهم الحيوانية من جهة ، وابتزاز أموالهم من جهة ثانية ... ومن يقدم على هذا العمل يمكنه أن يقدم على السرقة أيضاً .

وقد لاحظت أنه قد بدأ يفهم ما أقصد من وراء هذا التلميح ، وانتظرت ان يبدر عنه أي شيء يواسيني ، ولكنه على العكس ، راح يردد عبـــارته الأولى بقوله :

– ما كان أغباني لو تزوجتك ..

– ما كنت لأقدم على مثل هذا العمل المشين لو انك تزوجتني ، ويبدو انه كان بانتظار هذه العبارة ، إذ سرعان ما أجابني :

– لا تحاولي أن تضعي اللوم على عاتقي ..

– وعلى من تريدني أن ألقي اللوم ؟! لقد قدتني بيدك إلى مزالق الهاوية .. أنت الذي جعلني أصبح عاهرة ..

فحاول أن يغير مجرى الحديث ليتخلص من الحرج الذي أوقعته فيـــه فراح يقول :

– دعينا من هذا الحديث الآن ، اعطني العلبة حتى أردها قبل أن أفقد عملي في القصر من أجلك ..

لماذا لم تصرح عن غرضك منذ البداية ، قل ان البحث عن العلبة هو الذي دفعك لزيارتي .. انها في الخزانة ويمكنك استعادتها .

فأسرع إلى الخزانة يفتحها ويتناول العلبة المذهبة ليدسها في جيبه بعصبية ظاهرة ، ثم التفت إلي وقد عاد الارتياح والاطمئنان إلى وجهه قائلاً :

– هل انت حاقدة علي ؟

– لا ...

– ولكن تعابير وجهك تقول العكس .

– قلت لك انني لست حاقدة عليك .

فتنهد من أعماق صدره ثم انحنى على السرير يبغي تقبيلي، فسمحت له بذلك، وقبل أن يغادر الحجرة قال لي :

– هل سأراك في القريب ؟

– طبعاً .. سوف أتصل بك !

وعلى الرغم مما حدث بيننا من جفاء ونقاش ، فإنني لم أقطع علاقتي نهائياً بجينو ، بل تعمدت أن ألتقي به في فترات متباعدة لأقضي بين ذراعيه ساعة ممتعة لم تكن تتوفر لي مع غيره من زبائن الليل وطلاب المتعة ؛ إلى أن عاد ستيفانو استارينا الى الظهور على مسرح حياتي مرة ثانية ، وكان الوسيط هو عينه ، أعني جيزالا التي عادت تؤكد لي من جديد أن ستيفانو لا يزال على حبه لي ، وأنه يهواني ويتمنى لقائي ، وقد قبلت الاجتماع به شرط ان لا ارتبط معه بأي قيد .

وكان لقاؤنا في نفس المقهى الذي قابلت فيه جوليو لأول مرة وكما قالت جيزالا ؛ وجدت أن حبه لي ما زال قوياً وعنيفاً كالسابق ، إذ ما كاد يلمحني حتى فقد سيطرته على نفسه فتذكرت ما كانت تقوله لي أمي من ان بعض النساء الفاتنات يمكنهن السيطرة على عشاقهن سيطرة تامة ... ولا بد من القول دون مغالاة ، انني فرضت على ستيفانو نوعاً من هذه السيطرة دون ان اقصد ذلك ، وكان المسكين يحاول أن يتخلص منها دون جدوى ، حتى اني صرت في كل مرة ألقاه فيها امتهنه وأخضعه لرغباتي ونزواتي الخـــاصة وكان ينصاع إلي صاغراً

كالحمل ، أو كالمنوم مغناطيسياً ، حتى انه كان ، في بعض الأحيان ، لا يستطيع التحديق في وجهي ، إلا أنه لا يمكنني الإنكار أن ستيفانو استارينا كان يختلف اختلافاً كلياً عن جميع عشاقي قلباً وقالباً .

وبعد أن تناولنا طعام العشاء في تلك الليلة ، توسل إلي ان اطلعه على كل ما مر بي من حوادث منذ اللحظة التي غادرت فيها مكتبه ، فأطلعته على كل شيء بالتفصيل ، حتى اني لم اتورع عن مصارحته بعلاقتي بالتاجر الميلاني جوليو ، ولما انتهيت طوقني بذراعيه وقال :

– لقد كانت غلطتي ، وكان علي ان اصارحك بالحقيقة المؤلمة .

فأجبته :

– كلا .. انها ليست غلطة احد .

– بلى ، انها غلطتي ، لقد كنت السبب في تدمير حياتك .

– انها ليست غلطتك .. انها غلطة جينو ، فلولا خيانته لمـــا انحدرت إلى هذه الهاوية ! .

وكأن هذا الحديث قد أثار نزواته الجسدية ، فإذا به يلتصق بي ، ثم راح يداعب ساقي بأنامله بعصبية ، وأخيراً لم يطق صبراً ، فتوسل إلي أن نغادر المكان ، فقبلت واصطحبته إلى حجرتي .

وبعد تلك الليلة حاول جاهداً أن يحتجزني لإشبـــاع شهواته المتدافقة ، ولكنني كنت أتهرب منه مكتفية بلقائه مرة في الأسبوع ، وهكذا ظل حبه لي قوياً وعنيفاً ، فكان يحقق لي ما أصبو اليه فوراً ، ورغم كل ما كان يبديه نحوي ، ورغم انه أعطاني رقم تليفونه السري في الوزارة لأتصل به ساعة أشاء ، إلا انني كنت في أكثر الأحيان ، أضيق به ذرعاً .

وحدث ذات يوم ان شعرت بتعب وانحطاط ينتاب جسمي ، فاعتصمت في حجرتي طيلة ذلك اليوم ، وككل شخص ليس لديه ما يشغله ، رحت استعرض

حياتي من جميع نواحيها ، فأنا اصطحب معي اي رجل غريب اصادفه في عرض الشارع المظلم الى هذه الغرفة حيث نصطرع على هذا المخدع وكأننا عدوان ، ثم لا تلبث المعركة ان تنتهي، وتكون حصيلتي منها ورقة مطبوعة ملونة سرعان ما تتبخر ثمناً للطعام والثياب .

لم تكن هذه المرة الأولى التي انتهزها للتفكير في حياتي ، إذ طالما راودتني هذه الوقائع المؤلمة ، التي تذكرني بحقيقة المهنة المشينة التي أمتهنها .. وكنت في كل مرة أحس بندم شديد ينخر صدري ، فلا اجد غير الصلاة ألجأ اليها ، فأركع على ركبتي تجرف الدموع السخينة الساعات الطوال وأنا أردد عبارة لا تتغير :

ـ يا يسوع ارحمني !.

غير ان هذه الانتفاضات النفسية ما كانت لتبدل من مجرى حياتي وسلوكي . فقد بقيت ، كما أنا ، مومساً تبيع نفسها لكل من يدفع الثمن !..

القسم الثـــاني

الفصل الأول

وتوطدت صلتي بجيزالا حتى اصبحت ارافقها في كل مكان ونقضي الساعات الطويلة بانتظار عشاقنا من طلاب المتعة ، فإذا لم نظفر بواحـــد منهم ، قمنا نتسكع في الطرقات ، والشوارع المجاورة للمقاهي الكبيرة والمطاعم الفخمة حيث نصطاد المخمورين من الرجال الأغنيـــاء الذين يرتادون تلك الأماكن الارستقراطية .

وحدث ذات مساء ان غادرنا المقهى الصغير في ساعة مبكرة بعد أن اتفقنا أنا وجيزالا على النوم باكراً ، غير اننا لم نكد نسير بضع خطوات حتى شعرنا بسيارة تلحق بنا فالتفت إلى جيزالا وقلت لها :

ـ الظاهر اننا لن نستطيع التمتع بالنوم الباكر ، وراءنا زبائن .

ـ يمكنك الذهاب معهم حيث تشائين ، أما أنا فقـــد قررت الذهاب إلى حجرتي وسأذهب .

ـ إذا لم ترافقيني فلن أذهب .

ثم أدرت وجهي لأتبين من في السيارة ، فوقع نظري على شابين أحدهما يقود السيارة والثاني جالس إلى جواره ، وفي هذه اللحظة كنا قد وصلنا إلى

منعطف مظلم ، وكانت السيارة قد اقتربت منـــا وأصبحت بمحاذاتنا ، فإذا بالشاب الذي يسوقها يطل برأسه قائلاً :

– مساء الخير .

فأجابته جيزالا بلهجتها المتعالية :

– مساء الخير ! .

– وكم تدفعان ؟

– كما تريدين .

ونزل الشاب الذي كان يجلس إلى جوار السائق لتحل جيزالا محله ، بينما جلست أنا معه في المقعد الخلفي .. وقبل أن تنطلق السيارة التفتت جيزالا إلى رفيقها الذي يقود السيارة وقالت له :

– سنذهب الى حجرة رفيقتي ادريانا ، فهي نظيفة و خالية .

فهز رأسه موافقـــاً ثم سار في الطريق الذي عينته له جيزالا ، أما أنا فقد أخذت اختلس النظر الى الشاب الذي جلس الى جواري ، والذي لم ينبس ببنت شفة ، فألفيته شاباً وسيماً ، نحيف الجسم ، أبيض البشرة ، تدل سيماؤه على الطيبة وكرم المحتد ، فأحسست ان قلبي قد خفق له لأول نظرة ، وتمنيت ان يكون فتى أحلامي ، وقد دفعني هذا الشعور المفاجىء الى مراقبته بكليتي ودرس تعابير وجهه وحركاته حتى تنطبع في تلافيف ذاكرتي .

أما جيزالا فقد كانت في هذه الأثناء تحدث رفيقهـــا أحاديث شتى ؟ من ذلك سؤالها :

– هل هذه السيارة ملكك ؟

– نعم ... وهل أعجبتك ؟

– أجل .. انها مريحة جداً ، ولكنني أفضل عليها سيارة لانسيا لأنها أسرع وأمتن ، ان خطيبي يملك سيارة لانسيا فخمة .

لقد كان ريكاردو يملك سيارة لانسيا فعلاً ، ولكنه لم يكن خطيبها كما زعمت ، ويبدو ان عبارتها هذه قد جعلت الشاب يضحك منهـــا ساخراً وهو يجيبها :

– لا شك ان خطيبك يملك سيارة لانسيا تسير على عجلتين !

فاحمر وجه جيزالا غضباً ، وانفجرت في وجهه قائلة بلهجة قاسية :

– اسمع يا هذا .. يجب أن تعلم من نحن قبل أن تسخر منا .

– عفوك يا آنسة .. حقاً اني لا أعلم من أنتما .

لقد كان من عادة جيزالا أن تتهرب من حقيقتها كامرأة من المتسكعات ، بل كانت تذهب إلى الزعم بأنها راقصة معروفة أحياناً ، أو ضاربة على الآلة الكاتبة أحياناً أخرى ، مع ان واقعها كان يصدمها دائماً ، وقد لجأت هذه المرة أيضاً إلى الكذب فقالت له :

– اننا راقصتان من فرقة كاشيني .. وليس من عاداتنا أن نذهب مع أول عابر سبيل .. ولكن بما ان الفرقة لم تباشر عملها بعد ، فقد خرجنا للترويح عن النفس ، والحقيقة انني كنت مصممة أن لا أقبل دعوتكما ، ولكن صديقتي ادريانا توسمت فيكما الوسامة واللطف .

– لا شك أننا من الطبقة الراقية .. كما وأنه ليس هنالك شك في انكما من فتيات الشارع فلماذا الخداع ؟

وهنا انتفض الشاب الوسيم الجالس الى جواري وصاح في وجه رفيقه قائلاً :

– صه يا الفونسو .. ما هذا الكلام السفيه ؟

فتشجعت جيزالا وصاحت بوجه رفيقها من جديد :

ـ حقاً انك سيء الأدب ، مستهتر ، لا تعرف قدر الفتيات المحترمات .

فاستشاط الشاب غضباً لهذه الكلمات اللاذعة ، فأوقف السيارة إلى جانب الطريق ثم التفت إلى جيزالا ليرد لها إهانتها ويصارحها برأيه فيها ، غير أن رفيقه أمسك بكتفيه قائلاً :

ـ ألا تريد أن تصمت .. ما هذا التصرف .. هل دعوت الفتاتين الى سيارتك لتوجه اليهما الإهانات على هذه الصورة .. هل هذا من اللياقة ؟

ثم التفت إلى جيزالا قائلاً :

ـ لا تقلقي بالاً لما يقوله يا آنسة فهو قد أفرط في الشراب ولا يعي ما يقول.

وحاول الفونسو الاحتجاج ، ولكن رفيقه عاد فمنعه من الكلام قائلاً :

ـ هيا انطلق بنا ودعنا من ثرثرتك .

فانصاع لذلك وأطلق لسيارته العنان ، وظل هكذا صامتاً بضع لحظات ، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكاً وقال :

حقاً لقد كنت فظاً معكما فأرجو المعذرة .

ـ هيا اعطني قبلة تزيل سوء التفاهم بيننا .

فأدنت وجهها منه مقربة له شفتيها ، أما رفيقي ، واسمه انطونيو ، فقد عاد الى سكوته بعد أن زال سوء التفاهم بين رفيقه وجيزالا ، وبقي قابعاً في ركن المقعد دون أن يوجه إلي كلمة واحدة أو أن يحاول التحرش بي ومداعبتي .

وعندما أصبحنا على مقربة من منزلي ، أوقف الفونسو السيارة ، ثم هبطنا منها لنتجه تواً إلى حجرتي ، وبعد أن أغلقت الباب خلفنا التفت إلى جيزالا ورفيقها الفونسو قائلة :

– سأترك لكما الحجرة مدة ساعة من الزمن ، وسأذهب بصحبة انطونيو في نزهة قصيرة .

فرحبت جيزالا ورفيقها بهذه الفكرة ، وعليه أخلينا لهما الحجرة إلى غرفة الجلوس حيث جلست على أريكة هنـــاك وطلبت إلى انطونيو أن يجلس الى جواري ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمعني وظل واقفاً في وسط الغرفة ويداه في جيب معطفه ، فكررت الطلب مرة ثانية ، وبعـــد تردد ملحوظ جلس في طرف المقعد وسألني :

– ما اسمك ؟

– ادريانا .

– انه اسم جميل لفتاة أجمل .

– ان هذا الجمال رهن اشارتك الآن .

– ولنفرض انني أعتذر عن تدنيس هذا الجمال .

– هذا شأنك وحدك .

حسناً .. انني لا أريد ، لأنه ليست لدي رغبة لذلك .. قلت بشيء من الجفاء : كما تشاء .

والحق اني شعرت في قرارة نفسي أن رفضه هذا قد أثار حنقي ، وصدمني في صميم قلبي لا سيما وأن فؤادي قد خفق له بشدة ، ويبدو أنه أدرك ما يختلج نفسي من عوامل وانفعالات نفسية نتيجة لرفضه فبادرني بقوله :

– أرجو أن لا أكون قد أسأت اليك بهذا الرفض ؟

فهززت رأسي وأنا أكاد أنفجر باكية من شدة الغيظ ، وتمتمت قائلة :

– أنا لست مستاءة منك قطعياً .

- بما انك اضعت وقتك معي بلا فائدة ، فاسمحي لي أن أقدم لـــك هذا المبلغ المتواضع .

ومد يده الى جيب سرواله ؛ وتناول رزمة من الأوراق المالية يبدو أنه أعدها سلفاً ووضعها على المنضدة القريبة منه . فأسرعت أقول : - كلا .. لن أقبل هذا المال ..

ولكنه ألح علي بقبوله ثم خاطبني قائلاً :

- ما رأيك في نزهة قصيرة مشياً على الأقدام ؟

- كما تريد .. أنا طوع إشارتك .

كان الليل حالكاً ، ودخلنا ملهى ليلي تشع منه الأنوار فقلت له :

- ندخل لنتناول قدحاً من الخمر يجلب لنا بعض الدفء ؟

- هيا بنا .

وفي الداخل قادني إلى زاوية بعيدة عن أعين الفضوليين ، وعندما أحضر الخادم زجاجة النبيذ المعتق الجيد ؛ صب لي قدحاً مترعاً ، كما صب لنفسه آخر ، فرفعت قدحي الى شفتي قائلة :

- لنشرب جرعة واحدة نخب تعارفنا ..

فرفع قدحه الى شفتيه وجرعه حتى الثمالة ، ثم أعاده ليملأه من جديد فقلت له :

- لقد لاحظت أن صديقك الفونسو شاب مرح كثير الدعابة .

- انه ليس صديقي بالمعنى الصحيح .

- إذا كنت لا تعتبره صديقاً لك فلماذا ترافقه في نزهاته ومغامراته ؟

– انه رفيق الطفولة وزميل الدراسة فقط .. أما ما عدا ذلك فإن أهواءنا وأمزجتنا مختلفة تماماً .

وقلت له بدلال :

– إذن فأنا لم أعجبك .

ورحت أردد هـــذه العبارة بضع مرات وأنا أقترب منه شيئاً فشيئاً ، ثم رحت أمرر يدي على خديه وجبينه وشعره لأوقظ عواطفه الجامدة ، ولكنه ظل في بادىء الأمر جامداً لا يتحرك .. وأخيراً لاحظت أن ذقنه بدأت ترتجف ، فتأكدت انني قد أفلحت في إصابة الهدف ، والضرب على موطن الضعف فيه ، بينما راح هو يتململ في مقعده ويتمتم :

– ماذا تفعلين ؟ ألا ترين أن أعين الناس ترمقنا بفضول ؟

– لا يهمني ذلك : ثم رمقته بنظرة مغرية وأردفت :

– أعطني يدك .

ولمـا أصبحت يده في راحتي رفعتها إلي خدي قائلة :

– ألا تشعر بالحرارة المنبعثة من جسدي ؟

فصعدت الدماء الحارة إلى وجهه لتخضب وجنتيه وتزيده اضطراباً والتفت إلي يقول : هلمي بنا نغادر المكان .

– شرط أن نذهب إلى حجرتي .

وتشاغل عن الجواب بدفع ثمن زجاجـــة النبيذ للخادم ، ثم أشار إلي فغادرنا المقهى .

وعندما وصلنا إلى مقربة من المنزل راح يجيل بصره في الشارع بحثـــاً عن سيارة رفيقه الفونسو ، ولما لم يجدها قال :

ـ لقد انصرف اللعين بسيارته .

ـ لا بأس ، يمكنك أن تبيت الليلة في حجرتي اذا أردت .

ولم أدعه يفكر طويـــلا ، بل سحبته من ذراعه وأدخلته الى حجرتي ، ثم أغلقت الباب علينا ، وألقيته على مخدعي ، وبعد أن تجردت من ثيابي بكاملها انطرحت الى قربه أمارس معه شتى أساليب الحب التي أتقنها .. ولكن كل هذا لم يحرك فيه أي غريزة بل ظل على بروده ، وانكماشه ، رغم الجهود التي بذلتها ، وشعرت بدموعي تنهمر على خدي من شدة الحنق لجموده وإعراضه عني على هذا النحو ، فتركته يغادر حجرتي وأسلمت نفسي للنوم .

الفصل الثاني

لم أخرج من حجرتي في اليوم التـــالي ، فقد شعرت بالتعب منذ الصباح في سائر أعضاء جسمي ، وعزيت ذلك إلى الجهد الذي بذلته ليلة أمس بلا جدوى مع ذلك الشاب الأرستقراطي انطونيو .

وفي المساء قررت أن لا أخرج كعادتي للبحث عن عشيق الليلة ، بل دعوت أمي لقضاء سهرة بريئة في أحد المقاهي المتوسطة فاغتبطت لهذه الدعوة المفاجأة ، وأسرعت ترتدي ملابسها ، بينما جلست أراقبها عن كسب .. فلاحظت ان جسدها قد تهدل ، وبانت التجاعيد على وجهها وجبينها .. لقد كانت أمي في مثل جمالي وفتنتي عندما كانت في ريعان الصبا ، أما الآن فقد ذهب ذلك الجمال الساحر ، وتلك الفتنة الطاغية ، وحل محلها الترهل والتجاعيد ، وحدثت نفسي بأنه سيأتي يوم أفقد فيه جمالي أنا أيضاً... فألفيت نفسي لهذه الحقيقة ، ولم يقطع علي حبل أفكاري إلا صوت أمي تدعوني للخروج بعد أن انتهت من ارتداء ثيابها ، فسرت إلى جانبها وأنا ما زلت شاردة الفكر أحاول طرد تلك الأفكار السوداء التي سيطرت على رأسي فجأة .

واستمر سيرنا في الشوارع الرئيسية نتفرج على واجهات المحلات الكبرى المضيئة ، إلى ان استرعى انتباه أمي واجهة بديعة للمجوهرات والحلي الثمينة عرضت فيها مجموعة ثمينة من مختلف الحلي والخواتم الذهبية والماسية فإذا أمي تمسك بذراعي قائلة :

ـ ما أبدع هذا السوار الذهبي المحلى بالماس ، انه ولا شك يساوي مبلغاً من المال لا نحلم به .

ـ ما لنا والمجوهرات يا أماه ، لقد قر رأيي على أن لا أحضر رجالاً إلى حجرتي من الآن وصاعداً .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشير فيها إلى مهنتي المشينة بعبارات صريحة ، فرأيتها ترمقني بنظرات غامضة لم ادرك كنهها في ذلك الحين وقالت :

ـ لقد قلت لك مراراً انني لن اتدخل في تصرفاتك ، فاصنعي ما يحلو لك ، وكل ما يهمني أن تكوني سعيدة .

ـ أرى أن نعود إلى عملنـــا الشريف السابق ، فنشتغل معاً في خياطة القمصان لنكسب عيشنا بعرق جبيننا .

ـ لقد اشتغلت بهذه المهنة المتعبة سنين عديدة وهذا يكفيني .

ـ اذن هل أعود للعمل كنموذج للرسامين أم أساعدك في عملك ؟

ـ ان مساعدتك لي في الخياطة لن تجدي نفعاً ، وعملك كنموذج لا يدر مالاً كافياً .

ـ اذن سأسعى للحصول على وظيفة في احدى الشركات أو المحلات .

ـ اصنعي ما تشائين ، المهم ان أراك سعيدة ومرتاحة البال .

وبقينا على سيرنا الى أن صادفنا في طريقنا كنيسة ، وبحركة لا شعورية أمسكت بيد أمي ودخلت بها قاعة الصلاة ، حيث ركعت أمام تمثال العذراء أصلي صلاة قصيرة ، لقد كنت أشعر أنني أرتكب اثمـــاً كبيراً ، ومع ذلك ما شعرت يوماً ما بالندم ، لأنني كنت مقتنعة بأنني انما أزاول هذه المهنة الحقيرة مضطرة لكسب عيشي وسد رمقي .

وفي أثناء ركوعي أمام تمثال العذراء واجهتني الحقيقة الناصعة في أن هناك رباً رحيماً يرى كل شيء وأن الرب مطلع على ضميري وأعمالي ، وأنه سيجد لي عذراً فيغفر لي ويرحمني ، وأوضح دليل على رحمتـــه الواسعة وغفرانه ، انني ما زلت أتمتع بالحياة ، وأرفل في أثواب العافية ، اني مؤمنة أن الله تعالى موجود ليس ليحاسبني عن كل هفوة أرتكبها وليحكم علي فحسب ، بل ليبرر وجودي المستمد منه مباشرة .

وحانت مني التفاتة في تلك الثانية إلى أمي ، فإذا بها واقفة تراقب تصرفاتي بفضول ، فقلت لها همساً .

– هيا اركعي واشتركي معي في صلاة قصيرة قد تنفعنا .

فانصاعت لقولي مرغمة ، وراحت تتمتم بصلاة لم أفهم منها شيئاً وكنت أعلم أن امي لا تؤمن بالدين ولا برجال الدين ، إذ كانت تعتبر كل هـــذا تعزية مزيفة للفقراء !

وبعد ان انتهينا من الصلاة ، غادرنا الكنيسة واستأنفنا سيرنا في شارع « فياناسيونالي » ، وعندما اقتربنا من أحد المقاهي قلت لأمي .

– هلمي بنا نتناول قدحاً من الفرموت في هذا المقهى .

وكان الفرموت قد أثرت في رأسي ، فأحسست بنشوة لذيذة تدب في مفاصلي ؛ وبحركة لا شعورية فتحت حقيبة يدي وتناولت منها لفافة تبغ ورحت أنفث دخانها في الفضاء دون ان يتبادر إلى ذهني أن التدخين للفتيات في مثل هذه المقاهي ما هو إلا وسيـــلة للفت نظر الرجال من طلاب المتعة العابرة ، وصادف أن رجلاً كان يقف قبالة البار يجرع قدحاً من الشراب لاحظ حركتي ، فأدار وجهه نحوي وراح يحدجني بنظرات وقحـــة ، فأشحت عنه متجاهلة نظراته .

وفي هذه اللحظة بالذات نشبت معركة حامية داخل نفسي ، بين ضميري الحي من جهة ، ونزواتي الجسدية التي تتحكم بكياني وتدعوني لاجتذاب ذلك الرجل من جهة ثانية ، ضاربة عرض الحائط بالقرار الذي اتخذته منذ ساعة بالإقلاع عن تلك المهنة المشينة ، وأخيراً انتصرت نزواتي الجسديه ، وجعلتني أستدير نحو الرجل لأصوب اليه نظرات مشجعة ، جعلته يغادر المقهى ، وعندما وصل إلى الباب أشار إلي اشارة خاصة ، فالتفت إلى أمي قائلة :

– سأتركك برهة من الزمن فانتظريني هنا .

– الى أين أنت ذاهبة ؟

– هناك رجل ينتظرني في الخارج ، ومن الأفضل أن تعودي الى البيت ، وسألحق بك .

فرمتني بنظرة حزينة ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وغادرتها قبل أن تتمكن من التعليق على تصرفاتي .

وفي الخارج كان الرجل بانتظاري على عتبة المقهى ، فتأبط ذراعي وقال :

– إلى أين تريدين أن نذهب ؟

– إلى حجرتي ، وهي ليست بعيدة من هنا .

وهكذا ، وبعد ساعة واحدة من الجهـــاد بيني وبين نفسي ، عدت مجدداً للرضوخ ، والقبول بالمصير الذي كتب لي .

الفصل الثالث

كانت مقابلاتي لجينو قد اقتصرت في المدة الأخيرة على مرة أو مرتين في الشهر، إذ كنت أحاول دائماً التملص من مواعيده لأنني بدأت أضيق ذرعاً به ، وقابلته صدفة ذات يوم في أحد المقاهي التي كنت أتردد عليها ، فدعاني للجلوس معه ، وكان بصحبته رجل آخر ، طويل القامة ، منتفخ الصدر ، مفتول الساعدين ، وقد قدمه لي باسم بريمو رونكو ، فحياني الرجل بإيماءة من رأسه دون أن يحشم نفسه عناء الوقوف .

وأثناء جلوسي لاحظت أن جينو كان منشرح الصدر ، ثم لم يلبث أن راح يداعب رفيقه ، ويمازحه بعبارات سخيفة لم يتمكن ذلك العملاق من احتمالها ، إذ ما كان منه إلا أن انتهر جينو بعنف طالباً اليه الكف عن مزاحه السمج باستعمال قبضته الفولاذية فذعر جينو ، وأخذ يسترضيه ويعتذر له ، غير أن بريمو تركه وانصرف من المقهى وهو بحالة غضب شديد .

وبعد انصرافه التفت إلى جينو قائلة :

— ما هذا الصديق الفظ ؟

فأجابني :

— انني مضطر لمسايرته والاستفادة من صداقته .

— وماذا يفيدك ؟

لقد تولى بيع علبة المساحيق الذهبية التي سرقتها أنت من حجرة سيدتي ، لقاء عمولة اقتطعها لنفسه من الثمن .

وهنا تناول من جيبه بعض الأوراق المالية ، وعرضها علي ملحاً بقبولها ، ولكني رفضت بشدة ، فما كان منه إلا أن أخذ يتهمني بالجبن والخوف قائلاً .

– ثقي أنني دبرت القضية بمهارة بحيث لن يشتبه بي أحـــد لقد عمدت إلى إلصاق التهمة بإحدى الخادمات بعد أن دسست تحت فراشها بعض الدولارات التي سرقتها خصيصاً من خزانة سيدتي وهكذا قبض على تلك الخادمة بتهمة سرقة الدولارات أولاً ، ثم نسب اليها سرقة العلبة الذهبية بعد ذلك .

– وماذا حل بالخادمة المسكينة ؟

– إنها نزيلة السجن الآن .

فصحت في وجهه بحدة وازدراء :

– إذن فأنت انتزعت العلبة مني لتبيعها لا لتعيدها الى سيدتك ؟ وما ذنب الخادمة المسكينة كي تتسبب في إرسالها الى السجن ؟ حقاً انك لشخص حقير يحتمي بالضعفاء .

– ولكنني أجزم بأنك حقير ووغد .

وهنا فقد اتزانه فأمسك بيدي وراح يلويها بشدة قائلاً :

– اسحبي كلامك .. اسحبي كلامك وإلا !..

– دع يدي أيها الوغد ، انك تؤلمني .

وبعد جهد استطعت أن أنتزع يدي فنهضت مهرولة من المقهى بعد أن نقدت الخادم الحساب بكامله ، وقد صارحت جينو وأنا منصرفة بأنني قطعت علاقتي به نهائياً .

وما أن ابتعدت عن المقهى بضع خطوات حـــتى رأيت ذلك العملاق بريمو زونكو يعترض طريقي متوداً إلي ، فحاولت صرفه بالتي هي أحسن ، ولكنه ازداد إلحاحاً ، وأعلن انه على استعداد لمنحي مبلغاً محترماً من المال ، ثم أمسك بذراعي وشدني اليه بقسوة انخلع لها قلبي خوفاً ورعباً ، فرجوته أن يتركني ووعدته بأن أرافقه الى حيث يشـــاء ، فأفلت يدي وراح يتودد إلي بعبارات رقيقة ، وجدت حيالها أن لا مهرب لي منه ، فاصطحبته الى حجرتي حيث أطلعني على أسرار جعلت شعر رأسي يقف هلعاً .

لقد أطلعني بريمو ، وكان في حالة من السكر الشديد ، على سره فقال لي انه قصد منذ أيام الى أحد الصاغة في شارع باليسترو ، من عادته أن يشتري حلياً مسروقة بأثمان بخسة ، وعرض عليه علبة ذهبية ثمينة ، فحدد لهـــا ثمناً زهيداً جداً لم يرق لبريمو فرفض بيعها ، وإذ بالصائغ يهدده بأنه سيشي به إلى رجال الشرطة كي يقبضوا عليه بتهمة السرقة ، ففقد بريمو صوابه وهجم على الصائغ يطعنه في صدره طعنة كانت كافية للقضاء عليه ، وبعد أن انتهى من سرد تفاصيل جريمته وكيف تمكن من الفرار دون يراه أحد ، تناول من جيب سرواله رزمة من الأوراق المالية وقدمها لي ، فشكرته واعتذرت عن قبولها ، وحتى لا أثير شكوكه رجوته أن يعود الى زيارتي متظاهرة بالعطف عليه ، والإعجاب بقوته الخارقة ، وأعماله ، فانبسطت أساريره ، وتوقف قليلاً حيث تناول من جيب سترته الداخلية علبة مذهبة للمساحيق وضعها على المنضدة قائلاً انه يقدمها لي هدية ، ثم تسلل من حجرتي بهدوء .

وما ان أمعنت النظر في العلبة حتى عرفت فيها علبة المساحيق إياها ... التي سرقتها من قصر سيدة جينو ! لقد شاء القدر الساخر أن يعيدها إلي مرة ثانية عن طريق مجرم ! تلك العلبة الـــتي لعبت دوراً خطيراً في مجرى حياتي وكانت سبباً مباشراً في ازهاق روح ذلك الصائغ ، كما قادت خادمة بريئة الى السجن وأحسست بضميري يؤنبني لأنني اعتبرت نفسي مسؤولة عن كل

ما حدث .. ولكي أكفر عن خطيئتي عزمت على السعي لإنقاذ الخادمة البريئة من السجن وذلك بتسليم العلبة المذكورة إلى الشرطة عن طريق ستيفانو .

بكرت في النهوض من سريري في ذلك اليوم ، فارتديت ثيابي ، وقصدت إلى أول مركز للهاتف ، حيث اتصلت بستيفانو ورجوته أن يحضر الى منزلي عند الظهر لمسألة هامة ، وأثناء عودتي ابتعت بعض الصحف الصباحية لأطلع على التطورات الأخيرة في مقتل صـــائغ شارع باليسترو ، فوجدت أن أكثر الصحف قد نشرت خبراً مقتضباً يستفاد منه أن رجال الشرطة لم يعثروا على أدلة جديدة تمكنهم من اكتشاف الجاني !

وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ، فقررت أن أزور جيزالا في حجرتها ، لتمضية الوقت عندها ، ريثما يحين موعدي مع ستيفانو وبينما كنت أصعد الدرج المؤدي إلى حجرتها اعترضتني صاحبة المنزل قائلة :

ـ هل جئت لزيارة سنيوريتا جيزالا ؟

ـ أجل !

ـ لقد انتقلت منذ ثلاثة أيام الى مكان آخر .

ـ أين تسكن الآن ؟

ـ في المنزل رقم ٧ شارع كازابلانكا .

وقابلتني صديقتي مستلقية في مخدعهـــا ، وقد ارتدت غلالة من الحرير الأبيض ، وصففت شعرها بشكل جذاب ، فبدت وكأنها احدى السيدات الارستقراطيات !

بعد أن رحبت بي بحرارة أجلستني إلى جوارها قائلة :

ـ أهلاً بك يا ادريانا ، انني سعيدة برؤيتك .. هل أعجبتك هذه الفيلا ؟

أنا لم أكن في يوم من الأيام حسودة ، ولكني في تلك اللحظة أحسست بنيران الحسد والغيرة تنهش صدري ، وكدت أتلفظ بأشياء لا تليق وتفضح حسدي وغيرتي ولكنني ضبطت أعصابي وكتمت آلامي وأنا أحدث نفسي وأقنعها بأن من اللياقة أن اظهر ارتياحي وسروري لهذه النعمة التي نزلت على جيزالا ، فقلت لها:

– حقاً انهـــا فيلا بديعة جداً ، ولكنك لم تعلميني كيف حصلت على هذه النعمة ؟

– ألا تذكرين الفونسو ، ذلك الشاب الأنيق الذي تشاجرت معه عندما كنت أجلس في سيارته التي حملتنا الى حجرتك ؟ لقد توثقت العلاقة بيني وبينه وأصبح لا يطيق فراقي .. وأخيراً استأجر هذه الفيلا الجميلة وفرشها بالأثاث الفاخر وعرض علي أن أسكن معه فقبلت .. وهكذا ترين اني أصبحت الآن سيدة بيت لا أفارقه لحظة واحدة .

– هنيئاً لك بهذه السعادة يا جيزالا ولكن من حقي أن أعتب عليك لأنك لم تخبريني بذلك في حينه .

– لقد انهمكت بكليتي في تنظيم غرف الفيلا فـــلم أتمكن من الاتصال بك لإعلامك .

– لقد أصبحت الآن سيدة محترمة وقد تخجلين من استقبالي في منزلك .

– لا تسيئي بي الظن يا ادريانا ، أنا لن أتعـــالى عليك أبداً فأنت صديقتي الحميمة وكل ما في الأمر انني لن أستطيع بعد الآن مرافقتك إلى الأندية والمقاهي كما كنا نفعل في السابق .

– ثقي أني لن أزعجك بعد اليوم ، وما مجيئي إلا لكي أتسقط أخبارك وأطمئن عليك .

ـ هل ما زلت تقابلين ستيفانو ؟

ـ قليلاً . .

ـ وجينو ؟..

ـ لقد قطعت علاقتي به نهائياً .

ـ لقد أبدى ستيفانو استعداده لأن يهيء لـــك منزلاً جميلاً تقطنين فيه معه و ...

فقاطعتها بحنق :

ـ أنا لا أريد أن أقيد حريتي بستيفانو أو بغيره من الرجال .

ـ هل يحضر انطونيو لزيارتكما ؟

ـ أجل لقد حضر أمس مع الفونسو وتناول طعام العشاء معنا .

ـ إذا زاركما في المستقبل أرجو أن تخبريه برغبتي في رؤيته ، قولي له أن يتصل بي ..

ـ حسناً سأنقل اليه رغبتك .

ثم راحت ترمقني بنظرات فاحصة ، محاولة أن تقرأ ما في صدري ولكنني لم أنتظر تعليقاتها على ذلك بل حييتها وانصرفت بسرعة .

وعندما وصلت إلى المنزل ، كان ستيفانو قـــد سبقني بالحضور ، واحتل حجرتي ينتظر عودتي بفارغ الصبر ، وما أن وقع نظره علي حتى هب واقفاً واستقبلني بلهفة ثم راح يغمرني بقبلاته المحمومة ، ولما ضقت ذرعاً به قلت له :

ـ رويدك .. دع مداعباتك لوقت آخر لأن لدي بعض الأمور الخطيرة يجب أن أطلعك عليها .

فعاد إلى هدوئه وسألني : ـ ما هي هذه الأمور الخطيرة ؟

ـ بما أنك موظف كبير في دوائر الأمن العام فبإمكانك أن تلقي القبض علي الآن .

ـ ولماذا ؟ ماذا ارتكبت من جرم ؟

ـ انني سارقة .. لقد ارتكبت جريمـــة سرقة واتهمت امرأة بريئة بدلاً مني ، فزجت في السجن ، ولهذا أطلب اليك أن تلقي القبض علي وتطلق سراح المرأة البريئة .

ـ اخبريني بصراحة ماذا حدث ؟

فرحت أروي له تفاصيل الحادثة منذ اللحظة التي سرقت فيها العلبة الذهبية ، وكيف دبر جينو المكيدة التي أسفرت عن زج الخادمة البريئة في السجن ، غير انني لم أذكر اسم جينو ، بل وصفته بأنه أحد الخدم .

اما أن تلقي القبض علي ، أو ان تعمل بما لك من نفوذ على اطلاق سراح الخادمة المسكينة .

ـ وهل العلبة الذهبية ما زالت في حوزتك ؟

ـ أجل . .

وأخرجتها من حقيبة يدي وقدمتها اليه ، غير انه رفض استلامها قائلاً :

ـ إذا استلمتها منك واجبي يدعوني للقبض عليك .. وأرى أن الحل الوحيد أن تلجئي إلى أحد رجال الدين فتعترفي أمامه وتتوسلي اليه أن يسلم العلبة إلى الشرطة ، وثقي أنه غير مجبر على ان يذكر اسمك لرجال الشرطة ، وبذلك تنقذين نفسك وتنقذين الخادمة من السجن .

فراقني هذا الحل وقررت تنفيذه بحذافيره ، وفي تلك اللحظة بالذات سمعت

طرقات متواصلة على باب حجرتي ففتحته لأجد أمي تسر في أذني قائلة :

ـ هناك شاب وسيم الطلعة يلح في مقابلتك حالاً ، وهـــو ينتظر الآن في غرفة الجلوس .

وأحسست بقلبي يخفق بشدة ، ونفسي تحدثني بأن الزائر المجهول ما هو إلا انطونيو ، فقلت لأمي بلهفة :

ـ قولي له انني قادمة بعد لحظات ولا تدعيه يغادر المكان !

وأغلقت الباب والتفت إلى ستيفانو أخاطبه وأنا أتظاهر بالاضطراب :

ـ انني مضطرة لمغـــادرة البيت مع أمي ، فقد أصيبت عمتي بحادث في الشارع ، نقلت على أثره إلى المستشفى .. فاعذرني يا ستيفانو وسأتصل بك في وقت آخر .

فأبدى المسكين أسفه للحادث المزعوم الذي استنبطته مخيلـــتي وأسرع بمغادرة الحجرة وأنا أشيعه حتى الباب الخارجي ، ثم عدت مهرولة إلى حجرتي لأصلح زينتي وأستعد للقاء انطونيو .

عندما لامست أناملي مقبض باب غرفة الجلوس حيث كان الزائر ينتظر .. تبادر الى ذهني انني مقدمة على إنشاء علاقة غرامية بيني وبين ذلك الشاب القابع في الداخل ، وأخشى ما خشيته في تلك اللحظة أن ينتهي حبي لأنطونيو سيئاً ، كما بدأ سيئاً .

ولما وقفت أمامه ، وكان حدثي صدق ، قابلني انطونيو بابتسامة غامضة لم أدرك كنهها وقال :

ـ لقد كنت ماراً في هذا الشارع ، فرأيت أن أعرج للاطمئنان عليك .. وأرجو أن لا أكون قد سببت لك ازعاجاً بحضوري ؟

– أبداً .. يسرني ان أراك ، وأرى ان ننتهز هذه الفرصة لنتناول طعام الغداء معاً في أحد المطاعم .

ثم دنوت منه وطوقت خصره بذراعي وأنا أردف .

– هيا بنا .. انها مناسبة سعيدة سوف نقضيها معاً .

– انني أعتذر عن امكان تلبية رغبتك لأني لا أملك في جيبي مالاً .

فذعرت لكلماته ، ولكنني قلت له وقد تملكني الخوف من أن افقده بهذه السرعة :

– لا تفكر بالمال ، ان لدي المال الكافي لدفع ثمن غدائنا ، ثم اعتقد أنه من حقي ان اقيم حفلة صغيرة احتفاءً بعودتك إلي .

– كلا .. لن أذهب ، اسمحي لي بالانصراف .

ولكنني لم أدعه ينصرف ، بـــل تأبطت ذراعه وقدته إلى أقرب مطعم صادفته .

وجلسنا الى المائدة متجاورين ، وكنت قد أوعزت الى الخادم ان يحضر لنا زجاجة من النبيذ الجيد ، رحنا نشربها قبل الطعام .. وانتهزت فرصة غياب الخادم فدسست بيده من تحت المـــائدة ورقة مالية من فئة ألف ليرة كي يدفع الحساب ، فتناولها من يدي ، وبعد ما أمعن النظر فيها لحظة أعادها إلي قائلاً :

– احتفظي بنقودك ، لدي المال الكافي لأدفع الحساب .

– ولماذا ادعيت أنك لا تملك مالاً ؟

– انني لم أحضر الى منزلك صدفة كما ادعيت ... الحقيقة انني كنت أنوي زيارتك منذ شهر ، وفي كل مرة كنت أصل فيها قرب منزلك كنت أحس بدافع

خفي يمنعني من الدخول فأعود أدراجي .. أما ادعائي بأن لا مال معي ، فمرده رغبتي في الإفلات والتخلص من تأثير جمالك وفتنتك علي .

– ولماذا تحاول الهرب مني ؟

– لأنني أخشى على نفسي منك ، أنا صاحب ارادة ضعيفة لا تصمد أمام جمالك الساحر .

– المهم في نظري انك عـــدت إلي وأني تمتعت برؤيتك ، وثق اني لن أفقدك هذه المرة .

– لماذا أمسكت عن الكلام اذن ؟ حدثني بمكنونات صدرك ، قل ما يحلو لك .. اشتمني .. فأنا سأبقى احبك مهما قلت ومهما فعلت حتى ولو ضربتني .

– هيا بنا نغادر هذا المكان .

– إلى أين ؟

– إلى حجرتك .

لقد فوجئت حقاً بعرضه هذا ؛ وشعرت بسعادة لم أعهدها من قبل ، فأجبته بحماس ظاهر :

– ولكن دعنا ننهي طعامنا ، ومن ثم نذهب الى حيث تشاء .

– كما تشائين .

وانهمكنا في إنهاء طعامنا ، بينما رحت أؤكد له حبي الخالص وتفانيّ في سبيل مرضاته ، وقد لاحظت أثنـــاء حديثي ان ابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتيه لم أدرك مغزاها في ذلك الحين .

وكان قد احتسى قدراً كبيراً من الخمر جعلته ينتشي ويبدو مرحاً ، فنادى

الخادم ونقده الحساب ، وغادرنا المطعم على الأثر ونحن على أسعد حال .

وعندما كنا نرتقي الدرج القذر المظلم المؤدي الى حجرتي التفت اليه قائلة :

– انني فقيرة معدمة ، كما ترى ، وليس باستطاعتي ان اسكن شقة حديثة كالتي تسكنها جيزالا مع صديقها الفونسو .

فتوقف عن الصعود ومال إلي يشدني بذراعي وقال :

– إذا كنت تعتقدين ان انكماشي عنك مرده الفقر فأنت مخطئة .

ثم طوق خصري بذراعيه ، بينما كانت شفتاه تبحثان عن شفتي في الظلام الدامس الى أن التقيا بقبلة طويلة ، خلتها أسعد لحظات حياتي ، وكانت رائحة الخمر تفوح من فمه بقوة وكأنها أزكى من الروائح العطرية ، وأشهى من الرحيق .

وتأبطت ذراعه ، وقدته الى حجرتي ، وهو يترنح في مشيته ، بعد أن ذهبت الخمرة بلبه ، وعلا الاصفرار وجهه ، فنزعت عنه سترته وأجلسته على مخدعي ، ورحت أفرك جبينه ووجهه بماء الكولونيا لأنعشه ، ثم جعلته يستلقي على السرير وأنا بجانبه ، وبعد مدة من الزمن لاحظت أنه استراح قليلاً فسألته :

– كم تبلغ من العمر ؟

– عشرون سنة .

– أنا أكبر منك ، فعمري واحد وعشرون عاماً .

وفي هـــذه الأثناء كنت أعبث برباط عنقه ، وما لبثت ان فككته وأردفت قائلة :

– ان رباط عنقك قديم العهد ، وسوف اقدم لك رباط عنق جميل كهدية .

– اذن انت تريدين الاحتفاظ بي ؟

– وهل يغضبك هذا ؟

ـ كلا .. ولكن تصرفاتك أضحكتني .

فاقتربت منه أضع ساعدي تحت رأسه وقلت له :

ـ حدثني عن نفسك ماذا تعمل ؟

ـ أدرس المحاماة .

ـ وهل تسكن مع أهلك ؟

ـ كلا . ان اهلي يقطنون في الأرياف حيث يديرون أملاكهم ، وأنا أسكن في غرفة مفروشة بشارع كولادي رنيازو بمنزل الأرملة اميليا مادولاغي .

وهكذا اطلعني على دقائق حياته ، وآماله ، وأمانيه إلى أن رفع رأسه أخيراً واحتضنني بين ذراعيه وراح يقبلني في جميع أجزاء جسدي كما لم ينس أن يعضني بعنف ، وعلى الرغم من أنه كان يؤلمني بمداعباته إلا اني لم أنتهره ، بل تركته يفعل بي ما يحلو له وأنا مغتبطة بذلك ، ولما أنهكه التعب ارتمى إلى جانبي مكدوداً لاهث الأنفاس ، وراح في اغفاءة استمرت ساعة من الزمن ؛ استفاق في نهايتها وقد زال عنه السكر ثم استدار إلي يهمس في أذني :

ـ هل تريدين أن تؤدي لي خدمة ، فتحتفظي عندك ببعض الأوراق الهامة؟

ومع انني أحسست بدافع خفي يحملني على التردد في قبول مثل هذا الطلب إلا ان عاطفتي تغلبت علي فأجبته :

ـ يمكنك الاعتماد علي بكل ما تريد .

ـ حتى ولو تعرضت من جرائها للخطر ؟

ـ سأتحمل في سبيلك كل خطر .

فأفتر ثغره عن ابتسامة عريضة وضمني اليه بقوة وقال :

ـ انني أنتمي إلى جمـــاعة من الوطنيين المتحمسين الذين يقاومون الحكم

الحاضر في إيطاليا ؛ وجماعتي هـــذه تعمل في الخفاء على قلب هذا النظام .. وما تلك الأوراق إلا عبارة عن مناشير تحض الشباب الإيطالي على الانتفاضة والثورة .

لقد كانت الأمور السياسية لا تهمني قطعاً ، ولا تربطني برجالها ومحترفيها أي رابطة باستثناء ستيفانو ، بحـــكم منصبه الكبير في وزارة الداخلية ، فهو الوحيد الذي يمثل السياسة في نظري ، وقد وجدت نفسي بعد برهة قصيرة أسأله بلهفة :

ـ وهل هذه المناشير ممنوعة وخطرة ؟

ـ اجل .. انها خطرة .. وسأترك لك الخيار في قبول هذه المهمة أو رفضها.

ـ لا تهمني نفسي بقدر ما تهمني سلامتك ، ومن أجلك تراني مستعدة للذهاب إلى السجن .

ـ حسناً .. سأحضر المناشير إلى هنـــا قريباً لتخفيها في حجرتك والآن أستودعك الله وإلى اللقاء القريب .

وبعد ان طبع على شفتي قبـــلة طويلة خرج مسرعاً من حجرتي واختفى في الظلام .

الفصل الرابع

يبدو ان القدر بدأ يبتسم لي بعد طوال عبوس ، فقد عاد انطونيو لتكتحل عيناي برؤيته ، كما عادت احلام العذاب تراود رأسي .

وفي صبـــاح اليوم التالي أسرعت الى الكنيسة أعترف للكاهن بالسرقة وأسلمه العلبة الذهبية ، متوسلة اليه أن يسلمها إلى الشرطة لإنقاذ تلك الخادمة البريئة من السجن ، فقام الكاهن الصالح بواجبه طبقاً لما يفرضه عليه الدين وتعاليم الكنيسة ، وهكذا ساعدت على إطلاق سراح الخادمة المسكينة ، فتضاعفت سعادتي وغبطتي لهذا العمل .

وما ان خلوت الى نفسي حتى شعرت بحنين شديد الى لقـــاء انطونيو فارتديت أفضل ثيابي، وطرت الى المنزل الذي يسكنه في أول سيارة صادفتها، وعندما وقع نظره علي دهش لجرأتي وبادرني بقوله : ـ لماذا حضرت الى هنا ؟

ـ حضرت لأراك فقد اشتاقت نفسي اليك .

ـ انك فتاة متدفقة الشعور .

ـ ألا تأتي معي إلى حجرتي ؟

ـ لا يمكنني الآن ، لأني مرتبط بموعد هام مع بعض اصدقائي .

ـ تعالي نجلس على هذه الأريكة .

– حقاً انك لجبان .. كيف تجازف بنفسك في توزيع مناشير ممنوعة ضد الدولة وتخشى لسان أرملة خرفة ؟!

فعاد الى ضحكته الساخرة ، واقترب ليجلس إلى جانبي ، فأحطت عنقه بذرعي ورحت أقبله بحرارة وسرعان ما استجاب لقبلاتي فانغمسنا في بحر من المتعة العارمة ، ولم نستعد وعينـــا إلا على دقات الباب وصوت الأرملة تناديه فأسرع الى الباب يفتحه ليجد صديقيه يقفان خلف الأرملة ، ولمـا أصبحا في الحجرة التفت أحدهما اليه وقال : لعلنا جئنا قبل الموعد المحدد ؟!

– كلا .. بل جئتما في الموعد المعين .

– اقدم لك يا ادريانا صديقي طوليو وتوماس ..

وحاول بعد ذلك أن يصرفني من الغرفة ليخلو بصديقيه ، ولكني قلت له بصوت سمعه رفيقاه :

– ان لدي بعض الأمور الهامة التي لا تقبل التأجيل !

وهنا التفت أحدهما اليه وقال: – يمكنك اتمام حديثك مع الآنسة وسنلتقي بك غداً في مثل هذه الساعة .

فحاول انطونيو أن يثنيهما عن عزمهما فلم يفلح ، ولمـــا أصبحنا وحيدين التفت إلي غاضباً وقال :

– ماذا تقصدين من وراء صرف صديقيّ ؟!

– لا شيء سوى البقاء بجانبك .

– ولكني مضطر للبقاء في المنزل وتناول طعام العشاء مع الأرملة .

– حسناً ، سأكون ضيفتك هذا المساء .

ـ سأذهب لإبلاغ الأرملة هذا القرار لتعد لك مكاناً على المائدة ، سأدعي أمامها أنك خطيبتي . وعاد بعد غياب بضع دقائق ليقول : ـ لقد قلت لها انك خطيبتي ، فوعدت بأن تعد لنا عشاءً دسماً .

وانتهزت هذه المناسبة وسألته بلهفة ، قل لي : هل تحبني كما أحبك ؟

ـ لو كنت لا احبك لما سمحت لنفسي بأن أدعي خطوبتك مني .

فارتاحت نفسي لهذا الجواب ، ورحت أحلم بهذه السعادة التي هبطت علي من السماء ، وبقينا صامتين إلى أن حضرت الخادمة تعلن أن العشاء قد أعد ، فاتجهنا الى غرفة المائدة ، حيث وجدنا الأرملة قد سبقتنا وتصدرت المائدة ، بينما جلسنا ، أنا وأنطونيو ، متواجهين .

وبعد ان انتهى العشاء ، انسحبت الأرملة إلى غرفتها وتركتنا وحدنا ، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ، فأبديت رغبتي في الانصراف ، وقبل أن أودعه تناولت من حقيبة يدي رباط عنق جديد ، كنت قد اشتريته خصيصاً لأقدمه هدية لأنطونيو ، ثم دنوت منه أفك الرباط القـــديم ، وأعقد على ياقته الرباط الجديد الزاهي الألوان ، فلاحت على وجهه دلائل الامتنان ، والتقدير لهذه الهدية وشكرني بحرارة قائلاً : ـ سأراك في القريب العاجل .

ـ ومتى ؟

ـ غداً بعد العشاء ـ سأنتظرك على أحر من الجمر .

والآن ، لقد أصبح بإمكاني أن أصف أنطونيو وصفاً دقيقاً بعد أن مضى على علاقتي به أكثر من شهر .. كان شاباً مثقفـــاً ينتمي إلى أسرة واسعة في الأرياف ، أرسله أبوه إلى روما لإتمام علومه العليا ونيل شهادة المحاماة ، وأبوه كان طبيباً معروفاً نال شهرة واسعة مكنته من مضاعفة ثروته .

والأمر الغريب في أنطونيو أنه كان دائم التذمر والشكوى وكان متشائماً

ينظر إلى الدنيا عبر منظار أسود قاتم ، غير قانع بما هيأت له الأقدار من سعادة وغنى ، وقد بذلت جهداً جباراً كي أدرك شكواه وتذمره من واقعه ، ولما عجزت عن ادراك السبب الحقيقي ، عزرت ذلك لعقدة نفسية فيه قد تزول على مر السنين ، أما آرائه في البشر ، خاصة الأثرياء منهم ، فقد كانت آراء غريبة جداً ، ويكفي للدلالة على غرابتها القول بأنه كان يتمنى لو خلقه الله في وسط فقير .

وفي جميع خلواتنا ونزواتنا المتكررة ، لم يشر الى الشؤون السياسية أو اسم الحزب الذي ينتمي اليه ونشاطه السياسي ، وذات ليلة حضر إلى حجرتي ، وكان مضطرباً ، فلاحظت أنه كان يحمل في جيب سرواله مسدساً أوتوماتكياً ، فدهشت لذلك واستفسرت منه عن سبب حمله لهذا السلاح الخطر ، فأجابني ساخراً بأنه يحمله ليدافع به عن نفسه ، ولكني لم أقتنع بحجته ، وانتهزت فرصة غفوته وأخرجت المسدس من جيبه لأعيده إلى مكانه بعد لحظات وقد أفرغت خزانه من الرصاص .

وفي احدى الأمسيات ، وكان أنطونيو غائباً ، فوجئت بزيارة ستيفانو استارينا وكانت قد مضت عليه مدة طويلة لم أره فيها ، فأحسنت وفادته ولاطفته أملاً في أن أنال معونته في المستقبل إذا ما وقع أنطونيو في ورطة ما من جراء تهوره واندفاعه في الاشتغال بالمسائل السياسية .

ومن أجل أنطونيو وحده ، احتملت من استتيفانو شتى المداعبات السمجة ، وسمحت له بالبقاء حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي ذلك الحين كانت زيارات أنطونيو قد أصبحت متصلة لا تنقطع إلا فيما ندر ، وكان يقضي أكثر سهراته ولياليه في حجرتي حيث يستلقي على السرير ، ويستغرق في مطالعة أحد كتب القانون العويصة ، ويظل يقرأ وأنا أراقبه بلا

ضجر أو ملل إلى أن يدب النعاس الى جفنيه ، فينام بعض الوقت ، ثم يستفيق ليعود الى حجرته في منزل الأرملة اميليا .

وفي مساء أحد الأيام ، وكان قد انتهى من المطالعة ، التفت إلي قائلاً :

ـ ألا تريدين أن تؤدي خدمة لجميتنا ؟!

ـ وما نوع هذه الخدمة ؟!

ـ أن تتولي توزيع المنشورات مثلاً !

ـ سأفعل ما تشاء بلا خوف أو تردد .

ـ ولكن عليك أولاً أن تقتنعي بعدالة القضية التي تخدمينها .

ـ أوضحها لي . فأنا مستعدة لتفهمها والاقتناع بها .

فحدجني بنظرة فاحصة وقال :

ـ حسناً . سوف أشرح لك كل شيء .

الفصل الخامس

لقد قررت أن أتزوجك .. فأنا غني ويمكنني أن أوفر لك المال والسعادة وعندما يموت جدي لأمي سأرث عنه مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة ، وفيلا جميـــلة في الأرياف ، وسوف نغادر روما لنعيش معاً في تلك الفيلا الفخمة .

فتشبثت من فرط غبطتي ، بعنقه ورحت أقبله بشغف قائلة :

– أجاد أنت فيما تقول ؟ بالله عليك لا تمنيني بشيء لا تقصده !

فضحك انطونيو ملء شدقيه وقال :

– ستثبت لك الأيام صدق ما أقول !..

قال هذا وهب واقفاً وهو يقترح علي قضاء السهرة بمشاهدة أحد الأفلام السينمائية الفكاهية ، فرحبت باقتراحه ، وهكذا غادرنا المنزل في طريقنـــا الى السينما .

وبعد انتهاء عرض الشريط السينمائي استأذن انطونيو للعودة إلى حجرته ، وتواعدنا على التلاقي في صباح اليوم التالي .

وعندما ركبت احـــدى سيارات الاتوبيس في طريق العودة الى منزلي ، فوجئت برؤية بريمو زونكو يجلس على أحد المقاعد ؛ ولمحني الشرير ، فأشار علي بأن أجلس إلى قربه ، فامتثلت وأنا أرتجف خوفاً وهلعاً لمرآه ، وما أن اتخذت مجلسي الى جواره حتى بادرني قائلاً : لقد كنت ذاهباً الى منزلك .

ـ ولكن لم يعد بإمكاني أن أستقبلك في منزلي لأنني اصبحت مرتبطة بشاب يريد الزواج بي .

ـ هذا لا يهمني !

وكان الأوتوبيس قد وصل الى المحطة المجاورة لمنزلي فأسرعت بترك مكاني ، وما ان وطأت قدماي الأرض حتى شعرت بأنفاسه الحارة تلفحني من الوراء ، فاستدرت اليه أرجوه أن يدعني وشأني فاستشاط غضباً وأمسكني بيدي يجرني إلى باب المنزل جراً .

ولما أصبحنا في حجرتي بدأ يتودد إلي بلطف قائلاً :

ـ انني أملك مبلغاً محترماً من المال ، فلماذا لا نهجر روما إلى ميلانو لنعيش هناك حياة سعيدة ؟!

ومع أن فكرة الفرار مع ذلك العملاق المجرم قد أفزعتني ، إلا أني تظاهرت بالتفكير وقلت له :

ـ دعني أفكر في هذه المسألة بعض الوقت ، ولا موجب للعجلة .

ـ حسناً .. فكري في الأمر ، وأنا أنتظر جوابك على أحر من الجمر .

واتجهت الى باب الحجرة وأنا أقول له :

ـ انتظرني هنا .. سوف أعود اليك بعد دقائق قليلة .

وأسرعت خارجة بعد أن أغلقت عليه الباب ، وهرولت الى غرفة أمي وأنا أرتجف من الخوف والاضطراب لأقول لها :

ـ انني ذاهبة لأقضي الليلة في منزل زيلندا ـ وهي صديقة قديمة لأمي ـ ويمكنك الاتصال بي هناك ، وإذا سألك الرجل الموجود في حجرتي الآن ، عن مكاني فإياك أن تطلعيه عليه بل حاولي جهدك أن تصرفيه من المنزل .

وبعد ان ألقيت عليها هـــذه التعليمات هبطت الدرج مسرعة ، واستقليت أول سيارة تاكسي صادفتها في طريقي ، وأعطيت السائق عنوان المنزل الذي يقيم فيه أنطونيو ، وما هي إلا دقائق معدودات حـــتى كنت أرتقي الدرج المؤدي إلى حجرته ، وفي البهو استقبلتني الأرملة اميليا وبادرتني بقولها :

– هل جئت لزيارة السنيور انطونيو ؟

– نعم .

– لقد جئت متأخرة يا فتاتي المسكينة ، لقد اعتقله رجال الشرطة منذ نصف ساعة . فصحت مرتاعة :

– يا إلهي !. ولمـا اعتقل ؟!

– لست أدري ، وكل ما أعرفه ان بعض رجال الشرطة قاموا بتفتيش غرفته بدقة ثم اعتقلوه .

قالت هذا ثم ما لبثت أن أدارت لي ظهرها ، ودخلب غرفتها وتركتني في حالة يرثى لها ، والأرض تكاد تميد بي اثر هذا النبأ المشؤوم .

وهكذا غادرت ذلك المنزل محطمة الآمال والقلب ، وكان أول شيء تبادر الى ذهني الاتصال بستيفانو استارينا ، فهو الشخص الوحيد الذي باستطاعته أن يساعد أنطونيو ويعمل على انقاذه ، وألقيت نظرة خاطفة على ساعتي ، فألقيتها تشير الى الثامنة مساء ، فقصدت الى التليفون واتصلت به ، وما أن علمت انه في مكتبه حتى أسرعت لمقابلته هناك ، فاستقبلني بترحاب وطبع على يدي بعض القبلات المحمومة ، ثم اجلسني على مقعد كبير قريب من مكتبه ، وقبل أن يسترسل في مداعباته رحت أشرح له القضية ورجوته أن يعمل على اطلاق انطونيو ، لأنه ما زال طالباً ، وهو بريء من جميع الافتراءات والتهم المنسوبة اليه ، فقاطعني ستيفانو بقوله :

ـ لا تقلقي ، فسأعمل على انقاذه من أجلك .

قلت له بصوت متهدج وأنا اشرق بدمعي :

ـ أرجو أن لا تطول مدة سجنه ..

ـ إذا أطلقت سراحه فوراً فإني أعدك بأن أكون طوع اشارتك الى الأبد.

فانتصب واقفاً وغادر مكتبه بعد أن طلب إلي أن انتظره ، ولم يطل غيابه إلا دقائق قليلة عاد بعدها يقول بصوت متهدج :

ـ كيف تقولين انه معتقل ؟! لقد أطلق الرصاص على أحد رجال الشرطة فأصابه ، ثم فر هارباً .. وإذا تمكنوا من اعتقاله ، فلن أستطيع مساعدته .

فشعرت في قرارة نفسي بالارتياح لتمكنه من الفرار ، وحدثت نفسي بأنني سأبحث عنه في جميع أنحاء روما حتى أعثر عليه وأعيش بقربه أشاركه المخاطر ، فالتفت الى ستيفانو قائلة :

ـ اذن لقد تمكن من الفرار ؟..

ـ أرى دلائل الارتياح قد بدت على محياك .

ـ هذا ما أتمناه ، لأن بقاءه حراً طليقاً يمكنني من رؤيته .

وقطع علينا الحديث رنين جرس التليفون فرفع ستيفانو السماعة وراح ينصت إلى محدثه برهة من الزمن ، وما ان أعادها الى مكانها حتى التفت إلي وقال:

ـ هناك التباس في الأمر .. لقد أوفدت دائرة الشرطة قوتين من رجالها ، الأولى الى منزل الأرملة اميليا حيث يسكن انطونيو ، والثانية الى منزلك ، وقد تمكنت القوة الأولى من اعتقال انطونيو في حجرته ، أما القوة الثانيه فقد عثرت في غرفتك على رجل ظنت انه انطونيو ، خاصة لأنه رفض أن يبرز أوراق هويته ، ولما حاولت القاء القبض عليه بادرها بإطلاق النار فأصاب أحد رجالها بجرح مميت وتمكن من الفرار .

فصحت مرتاعة : يا إلهي !. اذن فأنطونيو في السجن .

وحدثت نفسي بأن الشخص الذي فر من منزلي ما هو إلا بريو زونكو ، وأنه يعتقد الآن انني وشيت به لرجال الشرطة فأسرعوا لاعتقاله .. وذهبت بي الظنون أبعد من ذلك ، وخشيت أن يعود الى المنزل مرة ثانية لينتقم مني .

ويبدو ان ستيفانو لاحظ ذهولي وشرود فكري فدنا مني مواسياً وقال : لقد وعدتك بمساعدته ، وما زلت عند وعدي لك ولا سيما بعد أن تبين أنه لم يطلق الرصاص على رجال الشرطة ، وسأتولى استجوابه بنفسي ، ومن ثم أطلق سراحه إذا لم أجد دلائل دامغة تدينه ..

وبعد أن غادرت مبنى الوزارة قصدت لتوي منزل صديقة أمي العمة زيلندا ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف مساء ، فاستقبلتني بترحاب ، ثم ما لبثت أن اخذتها الدهشة عندما علمت انني أنوي قضاء الليـــلة عندها ، وراحت ترمقني بنظرات فاحصة علها تدرك السبب وقالت :

– أرى دلائل اليأس والحزن مسيطرة عليك بشكل واضح ، ولا شك أن آلام الحب قد غزت قلبك .

– لقد أصبت الهدف .. والآن أرجوك أن تدعيني أنام لأنني متعبة جداً .

فنهضت وأشارت علي أن ألحق بها لتقودني الى الغرفة التي سأقضي فيها ليلتي ، ثم انسحبت الى حجرتها وهي تتمنى لي نوماً هنيئاً وأحلاماً ذهبية .

وأنى لي تلك الأحلام طالما أنه لم يغمض لي جفن في تلك الليلة فقد قضيتها أتقلب على الفراش كالمحمومة ، وقبل الفجر أخذتني سنة من النوم فنمت نوماً مضطرباً تخللته بعض الأحلام المزعجة .

وفي الصباح الباكر ، سمعت صوت العمة زيلندا تطلب مني أن أحدث

التليفون ، وسمعت أمي تقول : يا إلهي ! لماذا تركتني أواجه كل تلك المشاكل وحدي ليلة أمس ؟! كان يجب ان تحذريني .. وبالمناسبة السنيور انطونيو ينتظرك هنا .

أجبتها بلهفة : ـ أتقولين انطونيو ؟

ـ أجل .. لقد حضر مبكراً وهو يلح في مقابلتك فوراً ..

ـ أخبريه انني قادمة حالاً ، حالاً ، لا تدعيه يذهب ؟!

وأعدت السماعة الى مكانها ، وهرولت أرتدي ملابسي ، وأنا أكاد أطير من الفرح والسرور لعودة انطونيو .. اذن فقد وفى ستيفانو بوعده وأطلق سراحه فشكراً له وألف شكر .

ودخلت حجرتي التي ما كدت أفتح بابها حتى القيتها تسبح في الظلام .. لقد حرص انطونيو على اغلاق جميع نوافذ الغرفة بإحكام كما أرخى عليها الستائر .. ولما شعر بدخولي بادرني بقوله :

ـ أرجوك أن لا تضيئي النور أو تفتحي النوافذ .. أني أفضل أن أبقى في الظلام ..

ـ هل أنت بخير ؟!

فأجابني بصوت جاف : انني بصحة جيدة .

وكنت أتوقع أن يكون لقاؤنا أفضل ، ولكن الظلام حال دون اظهار عاطفتي الجياشة نحوه على حقيقتها ، فبحثت عن يده أداعبها بأناملي وسألته : ـ هل انت مشتاق إلي ؟!

ـ بالطبع . .

ـ إذن هيا بنا الى مخدعي .. وأمسكت بيده أقوده إلى السرير ، ثم رجوته

أن ينزع ملابسه ، فانصـــاع لرجائي بلا تردد ، وفي تلك اللحظة كنت أنا قد تحررت من ثيابي ايضاً ، فاندسست في السرير الى جانبه ، وطوقته بذراعي وألصقت شفتي بشفتيه المحمومتين ، وما هي إلا دقائق حتى كنا قد غبنا عن الوعي في غمرة الملذات الجسدية .

ولما عدت الى رشدي تبينت أن انطونيو قد ابدى معي هـــذه المرة ما لم اعهده فيه من ضروب الغرام والحب .. وبعد ان هدأت ثورة جسده الجائع ، همست في أذنه : والآن اخبرني ماذا حدث بالتفصيل ؟

– لم يحدث ما يستحق الذكر ..

– لماذا تحاول كتمان الأمر عني ؟ كن صريحاً معي .

– يجب ان تعلمي ماذا حدث بالضبط .. لقد اصبحت خائناً منذ الساعة الحادية عشرة من ليلة أمس .

فأحسست برعدة باردة تغزو مفاصلي من اللهجة العميقة التي نطق بها هذه العبارة ، ووجدتني اتمتم قائلة : خائن !.. ولماذا ؟!.

وبلهجته الساخرة التي اعتدت سماعها منه ، راح يروي لي حادثته :

– لقد اشتهر انطونيو بين زملائه الطلاب الجامعيين بالعنف والصلابة والاندفاع في سبيل تحقيق الأهداف الوطنية ، وكانوا ينظرون اليه كمرشح لتولي قيادتهم في المستقبل .. كما كان من المفروض في انطونيو ان يتحمل السجن والتشريد والاضطهاد في سبيل الدفاع عن مبادئه السياسية المتطرفة ، لأن هذه الفترة هي جزء لا يتجزأ من حياة الرجل السياسي ... ولكن ما ان القي القبض على السنيور انطونيو ، ولأول مرة ، حتى تراخت عزيمته فأفضى بكل ما لديه من معلومات عن زملائه وعن أهدافهم السياسية فأصبح خائنـــاً .. وهكذا طلق انطونيو حياته السياسية وأصبح مخبراً حقيراً لرجال الأمن العام .

والأنكى من ذلك كله انني لم أكن خائفاً أو متردداً عندما أدليت لرجال الأمن بمعلوماتي ، تصوري انني تحدثت اليهم هكذا ببساطة وسهولة ، تماماً كما اتحدث اليك الآن !

وعندما انتهى من حديثه سألته :

ـ ومن هو الشخص الذي استجوبك ؟.

ـ لا أعرف اسمه ، فهو رجل يميل إلى السمنة ، حسن الهندام يبدو انه يحتل مركزاً مرموقاً في الأمن العام .

قال ذلـــك ثم راح يضحك ملء شدقيه ضحكات عصبية وهو يحدث نفسه قائلاً :

ـ قد اكون افشيت سر زملائي لأن القضية التي ادعيت انني اخلص لها كانت لا تهمني البتة .. فقد كنت دجالاً مشعوذاً أسعى إلى المجد من أقصر الطرق وأسهلها .. هاها .. هاها أتسمعين ؟ ان حبيبك انطونيو قد أصبح خائناً ، أو مخبراً حقيراً .. هاها .

فانتابني الخوف عليه ورحت أتوسل اليه أن يعـــود الى رشده وأن لا يسترسل في الأوهام أو يستسلم لليأس القاتل ، لأن المعلومات التي أدلى بها قد لا تعدو الأمور العادية التافهة بحيث لا تشكل خطراً على زملائه ، كما يتوهم ، ولكنه قاطعني بحدة قائلاً :

ـ ولكنها أصبحت حقائق دامغة واتهامات ثابتة بمجرد تفوهي بها ، وقد تدين زملائي وأصدقاء أعزاء على قلبي ، وهذا ما يجعلني في نظرهم خائناً :

ـ اذن .. كان عليك ان لا تفشي هذه الأسرار ..

ـ أتدرين كيف يتكلم المرء اثناء نومه ؟ هكذا كنت أنا ، ربما كنت نائماً عندما تكلمت .. ولكنني استفقت الآن .. الآن فقط استفقت من غفلتي .

وهكذا ظل مدة ساعة من الزمن يلف ويدور حول هذه النقطة وهو في حالة من اليأس الشديد ، وقد سألته بعد ذلك :

أتعد ان رجال الأمن سيقبضون على زملائك ؟

ـ بل أنا اجزم بأن السجن سيكون مصيرهم .

ـ وهل تظن انهم سيعلمون بأنك أنت الذي وشى بهم ؟ وربما لن يعلموا .

ـ ولكن أنا اعلم وهذا يكفي .. ولقد ماتت شخصيتي الأولى وتلبست رغم انفي شخصية أخرى امقتها وأتمنى زوالها وهلاكها .

وحيال ذلك صارحته بعلاقتي بستيفانو ، وكيف أني ذهبت الى مكتبه وتوسلت اليه ان يسعى للإفراج عنه كما اعلمته انه هو الذي تولى استجوابه ثم اطلق سراحه ، فأصغى إلي بانتباه وهو صامت ، ثم قال : يا إلهي ! اذن لست مديناً بخلاصي للمعلومات التي افضيت بها لرجال الأمن ، بل الى وساطتك مع ذلك الرجل .

ـ أرجوك ان لا تذكر ذلك .

ـ على كل حال لقد أصبح من السهل الإفراج عن اصدقائي ايضاً إذا القي عليهم القبض ؟

ـ اعدك بأنني سوف اسعى لإنقاذهم إذا اقتضى الأمر ، وذلـــك من أجلك وحدك .

ورحت بعد ذلك احاول ان اشدد من عزيمته لأحمله على تنـــاسي ماضيه بآلامه ومشاكله ، فقلت له :

ـ لماذا لا تنصرف بكليتك إلى دروسك حتى تحصل على اجازة الحقوق فنهجر روما عندئذ الى مدينة بعيدة أو أي بلدة نائية في الأرياف حيث نعيش معاً في مسكن متواضع ونتناسى آلام الماضي وأحداثه ؟ !

فبادرني بصوت عميق قائلاً :

ـ وكيف يتسنى لي أتناسى واقعي وأنا مخبر حقير ..

ـ انت لست مخبراً .. حتى ولو كنت ، فلا شيء يمكن أن يحول دون سعادتك وهنائك .. ان هناك عشرات الألوف من البشر يرتكبون اشنع الجرائم وأحقرها ومع ذلك يعيشون سعداء فلماذا تحاول أن تثور على مصيرك ، اقبله كواقع لا مفر منه !

وفجأة رأيته ينهض من على السرير ، ويشرع بارتداء ملابسه في الظلام ، فسألته : ـ الى أين انت ذاهب ؟

ـ سأعود ثانية .. لا تخافي ، وأكثر من ذلـــك ، فلقد قررت أن اقيم معك فاطمئني ! .

ـ أتعني هنا في هذه الحجرة ؟

ـ أجل .. ولن ازعجك في شيء .. فالمال الذي أتلقاه من اسرتي يساعدنا على الحياة ...

وخرج .

الفصل السادس

وذات صباح .. أحسست بدوار وغثيان وأخبرني الطبيب بأني حامل .. وكانت المفاجأة .. ورحت أتساءل ، من يمكن أن يكون أب الجنين الذي بدأ يتحرك في احشائي !! فعدت بذاكرتي لشهرين خليا ، ورحت استعرض أسماء الأشخاص الذين اتصلت بهم ... فاتضح لي بعد التفكير الطويل ان اب هذا الجنين يجب أن يكون احد اثنين : اما انطونيو ، وإما ذلك المجرم العملاق بريو زونكو .. لأنني لم اتصل بغيرهما من الرجال خلال تلك المدة ، ولأن علاقتي الغرامية بأنطونيو بدأت في ذلك التاريخ بالذات ، ليكون ثمرة حبنا الصادق ، وهكذا اقنعت نفسي بصحة هذا الافتراض ، ورحت اعد في مخيلتي المفاجأة السارة التي بموجبها سأعلن الخبر لأنطونيو .

ولما وصلت إلى البيت رحت أرتقي الدرج بتثاقل ، خشية ازعاج الجنين ، ولما اصبحت في البهو طرق سمعي أصوات قادمة من غرفة الجلوس ، فتوقفت قليلاً لأجد انطونيو جالساً قبالة أمي يحدثها بهدوء ، فأسرعت اليه أحييه بحرارة ، بينما تركتنا أمي ودخلت إلى المطبخ لتعد لنا طعام الغداء .

وهنا استدار إلي وقال بلهجته الساخرة :

ـ لقد أحضرت حقيبة ملابسي وأمتعتي ووضعتها في الحجرة ، كما عمدت الى توثيق عرى الصداقة بيني وبين أمك لأكسب ودها .. وأعتقد اني نجحت .

فداعبت خديه بأناملي قائلة :

– حسناً فعلت ..

ثم اعتذرت منه ولحقت بأمي إلى المطبخ لأساعدها في اعداد المـــائدة ، وما ان شعرت بقدومي حتى بادرتني دون ان تلتفت إلي :

– هل يريد أن يسكن معنـــا ؟.. لقد راح يخطر في المنزل وكأنه السيد المطاع !.

– أتوسل اليك يا اماه ألا تغضبيه بكلمة ، واعلمي أن اقامته بيننا لن تطول ، ويمكنك ان تعلني للجيران انه خطيبي وإننا سنتزوج قريباً .

فلزمت الصمت ، وانهمكنا في اعداد مائدة الطعام ، بينما ظل انطونيو في غرفة الجلوس ينتظر .

وإن انسى فلن انسى ذلك اليوم ، الذي تناول فيـــه انطونيو الطعام على مائدتنا المتواضعة لأول مرة ، فقد ظل يمازح أمي ويداعبني بعبارات رقيقة ، كما لاحظت أن شهيته كانت قوية .

وبعد أن انتهى من تناول الطعام ، عادت تسيطر على تفكيره الهواجس السوداء السابقة التي نشأت عن ادلائه بتلك المعلومات لستيفانو ، والتي اعتبرها خيانة لأصدقائه .. والحق يقال اني لم أر في حياتي شخصاً ضعضع الندم كيانه ونفسيته على عمل ارتكبه ، مثل انطونيو !.

وقلت له ما رأيك في قضاء بضعة أيام على شواطىء كابري البديعة قد تفيدك في اعادة الثقة الى نفسك المضطربة وأعصابك المتوترة ؟.

– لست بحاجة للذهاب إلى كابري وشواطئها ، انني بحاجة ماسة الى أعصاب فولاذية لتسيطر على نفسي المضطربة الثائرة وتعيد إلي الثقة وراحة الضمير .

– لماذا لا تواجه واقعك على علاته فتعمل على نسيان الماضي المؤلم ؟

فراح يسخر من أقوالي على طريقته الخاصة وأردف يقول :

– هناك فئتان من البشر ، فئة تقبل بالواقع مهما كان مظلماً وقاتماً ، والفئة الأخرى لا تقبل بذلك الواقع .. ويبدو اني خلقت من الفئة الثانية . وهكذا بقي معتصماً في حجرتي لا يفارقها حتى حان وقت النوم ، فأطفأ النور وخلع ثيابه واندس الى جانبي في السرير دون أن ينبس ببنت شفة .

وفي الصباح رحت أراقبه وأنا احاول اقناع نفسي بأن النوم قـــد أراح أعصابه المكدودة ، غير اني لاحظت أن التشاؤم والقلق ما زالا يسيطران على كيانه بالرغم من تظاهره بالهدوء .

وعندما حل المساء أبدى رغبته في الخروج لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم ، فتركته ينصرف وحده ، وعندما عاد في ساعة متأخرة من الليل وكانت رائحة الخمرة تفوح من فمه بقوة ، جلس على حافة السرير وراح يغمرني بقبلاته المحمومة ، وعلى غير عادته وصل الى هدفه بعجلة لم أعهدها فيه من قبل فزادني هذا العمل اقتناعاً بأنه يعاني آلاماً نفسية شديدة الوطأة لا يعلم إلا الله عاقبتها على نفسه ، لذلك لم افكر في سؤاله عن المكان الذي قضى فيه سهرته .

وهكذا مرت عدة أيام على وتيرة واحدة .. كان يقضي نهاره في التفكير داخل حجرتي أو تدخين أكبر قدر ممكن من لفافات التبغ وهو قابع في غرفة الجلوس ، إلى أن يحل المساء حيث يخرج ليقضي سهراته في الحانات الصغيرة ، يجرع في كل منها عدداً من أقداح الخمر ليعود الى المنزل مخموراً ..

وانقضى الأسبوع الأول وأنطونيو لا يزال يتخبط في نفس الأزمة النفسية التي هدت كيانه وأفقدته اتزانه ، إلى ان هداني تفكيري الطويل الى وسيلة لحل هذه الأزمة فقلت له ذات مساء :

ـ إذا كنت تخشى أن تكون المعلومات التي أدليت بها الى ستيفانو قد دونت في تقرير ، فإن بإمكاني أن أقنع ستيفانو بإتلاف ذلك التقرير .

ـ وكيف يمكنك الاتصال به ؟

ـ يمكنني الاتصال به في مكتبه بوزارة الداخلية .

ـ اصنعي ما يحلو لك .

واتصلت بستيفانو حيث طلبت مقابلته بصورة مستعجلة ، فقـــال لي انه سيحضر الى منزلي عندما ينتهي من عمله في الوزارة .

ولما عدت الى البيت كانت أمي قد غادرته لشراء بعض الحاجيات الضرورية، فاتجهنا الى غرفة الجلوس نقطع الوقت بانتظار حضور ستيفانو وفجأة مر بخاطري ذكر الجنين الذي في أحشائي ، فوجدتها فرصـــة مناسبة لأصارحه بالحقيقة ، فالتفت اليه قائلة :

ـ اسمع يا انطونيو ، لدي نبأ هام أود ان اطلعك عليه .

ـ وما هو هذا النبأ ؟!

ـ لقد شعرت بإعيـــاء شديد ينتابني أمس ، فاستشرت طبيب الحي ، فاعلن انني حامل !.

فحملق في وجهي بذهول وقلق وقال : أتقولين انك حامل ؟.

ـ أجل .. وأنا متأكدة أن الجنين هو ثمرة حبنـــا في أيامه الأولى . . أتذكرها ؟ !

ـ فتردد برهة من الزمن ، ثم ما لبث أن دنا مني وقال :

ـ يا لك من ماكرة .. لقد ضربت ضربة موفقة أصبت فيها الهدف !

ـ ماذا تقصد بهذا القول ؟ لقد ظننت ان اعلان هذا الخبر قد يسرك .

فربت على خدي برقة وقال : ـ إذا كنت سعيدة فأنا كذلك .

ـ أجل .. أني سعيدة ، أولاً لأنني أحب الأطفال ، وثانياً لأن الجنين الذي في أحشائي هو ثمرة حبنا ، ولهذا أرجوك أن تنبذ الكآبة والقلق لكي تعيش سعيداً من أجل ولدك .

فطوق عنقي بذراعه بشيء من العطف وقال : ـ اعتني بصحتك وجنينك ودعيني أتدبر أمري بنفسي ولا تقلقي من أجلي .

وهنا قطع علينا الحديث رنين جرس الباب الخارجي ، فبادرته بقولي : ـ انه ولا شك ستيفانو ، فأرجوك أن تختبىء .

فأسرع بمغادرة الغرفة من بابها المؤدي إلى المطبخ ، بينما هرولت أنا إلى الباب أفتحه ، فإذا بنظري يقع على بريمو زونكو بدلاً من ستيفانو ، فتراجعت مذعورة وكأنني أواجه كابوساً مخيفاً .

كانت يداه في جيب سترته ، فحاولت ان اغلق الباب في وجهه لكي أمنعه من الدخول ، ولكنه رفس الباب برجله اليمنى فانفتح على مصراعيه ، ودخل وهو يزمجر بكلمات كانت تخرج من فمه وكأنه زئير حيوان مفترس واتجه تواً إلى غرفة الجلوس ، حيث احتل مقعداً هناك فتقدمت منه بخطوات متعثرة وسألته : ماذا جئت تعمل هنا ؟!

ـ لقد فررت من البيت لتشي بي إلى رجال الشرطة .. هيه ؟

ـ اقسم لك انني لم اسيء اليك ولم أش بك لأحد .

ـ انك كاذبة .. لقد وثقت بك فغدرت بي .. ألم تذهـــبي تواً لإعلام دائرة الشرطة ؟!

ـ أؤكد لك انني لم أغدر بك .. لقد فررت منك لأنني أحب رجلاً آخر .. وقد حضر رجال الشرطة الى هنا ليبحثوا عن شخص سواك .

وهنا كانت ثورة غضبه قد خفت ، فعـــاد الاطمئنان الى نفسه فنهض من مقعده محاولاً تطويق خصري بذراعيه القويتين ، فصحت به قائلة : دعني أيها المجنون .. واخرج من هنا ..

وفي هذه اللحظة بالذات ، سمعت صرير الباب وهو يفتح بقوة ليندفع منه ستيفانو وبيده مسدس ، فأسرعت اليه احتمي به قائلة :

ـ قل لهذا الوحش البشري أن يخرج من هنا .

وبخطوات ثابتة جريئة لم أعهدها بستيفانو من قبل ، تقدم من بريمو قائلاً :

ـ لقد طلبت اليك الآنسة الخروج من منزلها ، فماذا تنتظر ؟.

ـ هناك أمور خطيرة يجب تسويتها بيني وبين الآنسة ومن الأفضل أن تنصرف أنت .

وهنا كان ستيفانو قد اقترب منه كفاية ، ورفع يده مهدداً :

ـ هيا اخرج من تلقاء نفسك وإلا أجبرتك على الخروج كالكلب الأجرب !

فهز بريمو رأسه علامة الرفض وهو يتراجع إلى الوراء مبتعداً عن ستيفانو الذي راح بدوره يدنو منـــه بخطوات ثابتة ، وأخيراً شاهدت قبضة ستيفانو تستقر على فك بريمو ، فترنح هذا الأخير قليلاً ، وهنا خشيت على ستيفانو من سوء المصير ، فأغمضت عيني لكي لا تقعا على مشهد النهاية المحزنة .. ولما فتحتها بعد لحظات ، كان بريمو زونكو قد أطلق ساقيه للريح .. وسمعت صوت ستيفانو يسألني بهدوء : من هو هذا الرجل ؟!

ـ لا أعرف اسمه ، لقد التقيت به في عرض الطريق .

ولم أكد انهي جملتي حـــتى شعرت بيديه تطوق خصري وهو يسألني : لماذا اتصلت بي ؟!

ـ لقد اتصلت بك لكي أرجوك أن تؤدي لي خدمة .

ـ وما نوع هذه الخدمة ؟

ـ انها تتعلق بأنطونيو أيضـــاً ، أرجوك ان تتلف التقرير الذي يتضمن المعلومات التي أدلى بها اليك .

فانفجر ضاحكاً وقال :

ـ ولكنها خدمة خطرة تعود علي بالوبال !

ثم شد ذراعيه حول وسطي واستطرد :

ـ وما هي المكافأة التي سأحصل عليها منك لقاء هذه الخدمة ؟!

ـ لن أتمكن من مكافأتك هذه المرة لأنني أحب انطونيو وسأتزوجه .

فأفلت خصري ، ثم حدجني بنظرات فاحصة وقال :

ـ إذا كنت صادقة فيما تقولين فلا يسعني إلا إجابة طلبك كخدمة أخيرة طالما انك أحسنت معاملتي في الماضي .

وبعد ان ابتعد عني قليلاً أردف يقول بصوت هادىء شديد النبرات :

ـ اعلمي ان المعلومات التي أدلى بها انطونيو لم يجر تسجيلها في تقرير ، وكل ما في الأمر أنه أشير الى جانب اسمه بأنه ما زال شاباً خطراً من الوجهـــة السياسية ، والآن أستودعك الله يا ادريانا .

وفي اللحظة التي خرج فيهـــا ستيفانو من الغرفة ، برز انطونيو على عتبة الباب المؤدي إلى المطبخ ، فبادرته مستبشرة :

ـ لقد أكد لي ستيفانو أنه لم يسجل أقوالك في تقرير كما ظننت .

فأجابني بهدوء : لقد سمعت حديثه بكامله ، لقد كنت أقف خلف الباب .

قال هـــذا ثم راح يضحك بصوت مرتفع ، تلك الضحكات الهستيرية التي لا يعرف غيرها .

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله في تلك الساعة ، فطلب إلي أن لا أضيء النور ، بل ترك الغرفة تسبح في الظلام ، بينما أشعل لفافة وراح ينفث دخانها في فضاء الحجرة ، وهو جالس الى مقعد بجانبي ، وقد أطلق لأفكاره العنان ، وكان قد مضى علينا ونحن صامتين ما يقارب النصف ساعة عندما اقتحمت أمي باب حجرتي ودلائل الرعب الشديد بادية على محياها ، وبعد ان قذفت بما تحمله على المنضدة ، انطرحت على المقعد لاهثة الأنفاس ، فسألتها بلهفة :

ـ ما بالك يا أماه ؟!

ـ يا إلهي !.. لقد حدثت مأساة مروعة في الحي القريب منا .. لقد تصدى ذلك العملاق المجرم بريمو لستيفانو في عرض الطريق ، وتبادلا إطلاق الرصاص ، فأصيب برصاصة في صـــدره قضت عليه ونقل إلى المستشفى في حالة الخطر الشديد !..

وما ان أنهت أمي سرد الحادثة حتى قفز انطونيو من مكانه وقال وهو يتجه الى الباب ، بأنه يريد الاستفسار عن الحادثة المروعة وأنه سيعود سريعاً .. وفي طرفة عين كان قد اختفى عن ناظري وابتلعه الظلام !.

وانتظرته تلك الليلة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ولكنه لم يعد ، فذهبت بي الظنون كل مذهب ، وبقيت أتقلب على السرير دون أن يغمض لي جفن وأنا أتذكر ستيفانو المسكين الذي كان لي خير صديق ومعين في الأزمات ، وتمنيت له الشفاء العاجل .. وفجأة شعرت بطنين يدوي في أذني ، فذعرت لهذا وشرد فكري إلى حيث يرقد ستيفانو في المستشفى وتخيلته في تلك اللحظة يعالج سكرات الموت وليس من مؤنس لوحشته في لحظاته الأخيرة ، وكدت أنهض من سريري وأركض إلى المستشفى ، ولكن غياب انطونيو عاد يشغل فكري ؛ والخوف عليه يستحوذ على كياني ، فحدثتني نفسي بأنه قد فر من

طريقي لأنني حامل ، لا يريد الاعتراف بالابن السفـــاح الذي في أحشائي ، وهكذا بقيت فريسة للهواجس والخواطر القلقة حتى شعرت بخدر يدب في جميع أجزاء جسمي ..

واستفقت في الصباح الباكر على أصوات صادرة من غرفة الجلوس ، تخيلت بينها صوت انطونيو ، فنهضت من سريري وأنا في لباس النوم لأجد أمي تجادل جاراً لنا في حادثة ليلة الأمس .. وقد علمت من حديثهما أن ستيفانو المسكين قد لفظ أنفاسه في الليل متأثراً من جراحه ، فعدت لتوي إلى حجرتي لا أنبس ببنت شفة .

وهكذا بقيت ثلاثة أيام بلياليها فريسة للقلق والاضطراب من أجـــل انطونيو ، وفي اليوم الرابع تلقيت منه رسالة حملت بين سطورها حكم الإعدام على حبي ، وهذا نصها !

« حبيبتي ادريانا !

عندما يصلك كتابي هذا ، أكون قد انتقلت إلى العالم الآخر ، لقد تفحصت مسدسي فوجدت ان خزانته خاليـــة من الطلقات ، فتحققت انك أنت التي نزعتها منه ، ولكنك ، عن غير قصد منك نسيت أن تنزعي الرصاصة الوحيدة التي كانت في الفوهة قرب الزناد ، وقد كانت هذه الرصاصة هي طلقة الرحمة بالنسبة لي ..

حبيبتي الصغيرة !

لقد ضقت ذرعاً بنفسي ووجودي ، وتحققت في الأيام الأخيرة انني أحبك .. مع انه كان يجب علي أن أكرهك لو انني كنت منطقياً مع نفسي ، ولكن عاطفتي نحوك قد تغلبت أخيراً على إرادتي وكياني ، فانصعت لك صاغراً مستسلماً ، ولهذا وجدت من الأفضل أن أضع حداً لحياتي ، بغية اعادة الأمور إلى نصابها .

لا تخافي يا ادريانا .. فأنا لم أكرهك ، بل أصارحك أكثر من ذلك فأقول

انني أحببتك ، لأنك تمكنت من إطالة أمد حياتي بضعة أيام هي التي قضيتها بقربك، ولو كان بالإمكان ان أظل على قيد الحياة لتزوجتك وعشنا سعيدين معاً.

أما الطفل الذي ستلدينه بعد أشهر ، فقد حررت رسالتين بشأنه ، أحدهما إلى أسرتي ، والأخرى إلى صديق لي محام ، ومع ان أسرتي من الأسر المحافظة التي لا أدري ما سيكون موقفها وشعورها نحوك إلا انني أؤكد لك أنها ستقوم بواجبها نحو الطفل وأمه .. أما إذا قدر لها وامتنعت عن القيام بواجبها ، فما عليك إلا أن تتصلي بالمحامي المذكور وهو شاب مخلص يمكنك الاعتماد عليه لتسوية المسألة بالطرق القانونية .

لا تنسيني .. وقبلاتي الأخيرة لك .

ملحوظة : سهى عن بالي أن اعلمك بأن اسم المحامي هو فرنسيسكو لورو وعنوانه في شارع فيا كولادي رينزو » ..

وما ان انتهيت من تلاوة الرسالة حتى هرولت إلى حجرتي ، أطمر رأسي في ثنايا السرير وأنشج بالبكاء بصوت مرتفع .. ولست أذكر كم من الوقت مضى علي، وأنا على هذه الحالة التعسة ، التي بكيت خلالها من أجل أنطونيو ومن أجل حبنا ، وثمرته التي لم تر النور بعد ، لا من أجل نفسي .

وأخيراً نهضت لأغسل وجهي وأصلح زينتي ، وأسرع إلى مفوض الشرطة ، أروي له الحادثة بالتفصيل وأطلعه على نص الرسالة المشؤومة .. وقد حاول المسكين ، وهو في العقد الخامس من عمره ، أن يسري عني بقوله :

ـ لا تسترسلي في الحزن ، ولا تستسلمي لليأس القاتل يا آنسة ، قد يكون صديقك قد كتب الرسالة في حالة يأس ، ولا بد انه أقلع عن فكرة الانتحار.. فهدئي روعك وسنبحث لك عنه في كل مكان ، ثم طلب إلي الانصراف على أن أعود في اليوم التالي ليطلعني على نتيجة بحثه ، فغادرت دائرة الشرطة الى أقرب كنيسة حيث ركعت تحت قاعدة تمثال السيدة العذراء أبتهل اليها بحرارة أن تنقذ انطونيو وترعاه .. وكنت اذرف الدموع الغزيرة وأنا أقرع صدري ،

وأصلي بإيمان وإخلاص، ولم أغادر الكنيسة إلا بعد أن جاوزت الساعة الثامنة.. ومعنى ذلك اني قضيت في الصلاة والابتهال حوالي الساعتين ..

وعدت الى البيت بعد ذلك لأعتصم في حجرتي لا أقابل أحداً ، وانتظرت بزوغ الفجر وأنا على أحر من الجمر ، كي أعلم مصير انطونيو ..

وبكرت إلى دائرة الشرطة ، وانتظرت حضور المفوض ، وعندما حضر إلى مكتبه ،أسرعت أستفسر منه عن مصير انطونيو ،فرمقني بنظرات غامضة وقال:

– يؤسفني أن أنقل اليك النبأ المشؤوم يا آنسة .. لقد تلقيت وأنا في منزلي مخابرة خاصة من أحد مفتشي الشرطة ، تفيد انه عثر في أحد الفنادق على جثة شاب منتحر مجهول الهوية، لم يعثر في جيوبه على غير صورة له ويمكنك مشاهدتها!

ثم مد يده بالصورة يعرضها أمام ناظري، فإذا هي صورة انطونيو، فانفجرت باكية ، وانطلقت هائمة في الشارع ، كسيرة القلب ، محطمة الآمال ..

ولما وصلت إلى البيت ، ارتميت في أحضان أمي باكية ، ورحت أروي لها الحـــادثة المفجعة ، فحاولت ادخال العزاء والسلوى الى نفسي بعبارات عادية لا عاطفة فيها .. وأخيراً خاطبتني بقولها :

لا تسترسلي بالقلق يا ادريانا ، انت حامل ويجب أن تعتني بصحتك من أجل الجنين الذي بين أحشائك، ولا تنسي الاتصال بأسرة انطونيو عن طريق المحامي.

فأجبتها بحدة :

– هذه المسألة لا تخصني ، بل تخص ابني .

ولما خلوت الى نفسي رحت أستعرض حياتي منذ اليوم الذي احترفت فيه تلك المهنة المشينة حتى الساعة التي وقعت بها في حب انطونيو .. فخرجت من كل ذلك بصورة واضحة لفتاة شقية تعسة هي أنا، كان الوسط الفقير الذي نشأت فيه ، وتغاضي أمي وتشجيعها ، السبب المباشر في وصولي إلى ما وصلت اليه !.

﴿ تمـــت ﴾